إلى القارئ

تحد جديد ؟

انتهت ـ بانتهاء رحلة أبولو 17 منذ أيام ـ مغامرة الانسان الفضائية عندما حاول غزو القمر ونجح نجاحا كبيرا تمثل فى صيحة نيل ارمسترونف ذات يوم تاريخى حاسم من جويلية 1969 : « إنها خطوة صغيرة يخطوها الانسان (على سطح القمر) ولكنها خطوة عملاقة بالنسبة للانسانية ! » ٠

وبالرغم عن أن الثقة المطلقة ـ والساذجة أحيانا ـ التى فاز بها العلم منذ مطلع القرن العشرين خاصة ، بوصفه طريق المعرفة الثابت ومفتاح السعادة البشرية الناجع ، قد تناقصت منذ مأساة هيروشيما وناقازاكى ، إذ أصبح الناس يتساءلون هل أن العلم سيصبح أداة دمار وشقاء كلما تفاقم القلق واستشرى الرعب إزاء هول بعض التطبيقات العلمية ٠٠٠ فان غزو القمر قد بعث ـ من دون منازع ـ النخوة فى النفوس ودعم شعور الانسان بأنه سيد الكون وربما زاد فى غروره ! والواقع ان هذا النجاح الباهر جولة إيجابية فى تاريخ صراع الانسان مع الطبيعة منذ العهود الغابرة ، وسعيه المتواصل الى تجاوز ذاته ، ومغالبة جاذبية منزلته الارضية بعد التغلب على جاذبية الارض ، من دون أن نهمل الشحنة الشاعرية والقشعريرة الماورائية اللتين لا يعلمهما الشاعر الملهم والفنان الحساس والفيلسوف المعتبر والعابد المتبتل ورجل السياسة المخلص الأصيل ٠٠٠ إزاء جمال الكون وتأمل فضائه اللامتناهى والظفر ٠٠٠ « بالقمر » بعد فرط شوق وطول حنين !

نعم ، قد تكون مقابلة التحدى الروسى بعد إطلاق أول مركبة فضائية وجولة ڤاڤارين المظفرة فى الطبقات العلوية ، بتحد أمريكى يماثله ويتجاوزه هى المحرك الحاسم فى هذه المغامرة الكونية التى لم تخل من واعز قومى وغاية سياسة هادفة ٠٠ لكن ليس هذا هو الأهم ٠ إذ يجب أن نتصور مدى ما أنجز الانسان من اختراعات وحل من مشاكل نفسانية وحقق من مكاسب فى

دنيا الفنون والتكنولوجيا ، وعندئذ ندرك أن قصة « أبولو » ــ آلهة الحكمة والاعتدال عند قدماء اليونان ــ إنما هي في الواقع صفحة مشرقة من ملحمة « بروميتيوس » الانسان ٠

ذلك أن عملية « أبولو 17 » ، كسابقاتها منذ 1969 ، وغيرها من التجارب العجيبة التي يقوم بها الانسان يوما بعد يوم ، إلى جانب ما ستثرى به معلوماتنا فيما يتعلق بعلم الجيولوجيا وفيزيا الكون وأصله ، وما وفرته بعد من إمكانيات لا تحصى ولا تعد في خصوص استغلال الأدمغة الالكترونية ومختلف تطبيقات التكنولوجيا ، من شأنها أن تقنع الانسان ــ أكثر من أي وقت مضى ــ بأنه هو المسؤول الأول عن مصيره ، وأن العلم ليس خيرا ولا شرا في حد ذاته ، وانه ليس قيمة اخلاقية بل هو وضوح رؤية ، وأنه في آخر الأمر لا يخدم صالح الانسان الا بقدر ما يريد هو ذلك ، لأن الاختراع ليس له اتجاه ولا ميل بل الفكر البشري هو المسؤول عن النتائج الحاصلة ، صالحها وطالحها٠ومعنى ذلك ان العلم لا يخدم الانسان خدمة نافعة الا بقدر ما يكون هذا الانسان خيرا ، فاضلا ، ذا ضمير اخلاقي حي ٠ ولعل الفيلسوف برقسون قد أشار الى هذه الحقيقة عندما قال منذ أكثر من نصف قرن : « الآن أصبح للانسان جسم في مقدوره ان يرتقي حتى الى النجوم ولكن هذا الجسم يترقب اليوم مزيدا من الروح » (*) ٠

لذلك عندما يتحسر بعضهم ــ مخلصين ــ على تبذير 26 مليارا من الدولارات لانجاح عملية أبولو وتمكين بعض الرواد من قطع أربعمائة ألف كيلومتر للقيام بجولة عابرة على سطح جرم سماوي خال من الحياة والرجوع منه ببعض الحجارة ٠٠٠ في الوقت الذي يقاسي فيه مآت الملايين من البشر ويلات الجوع والجهل والمرض وتزداد ثروة الشعوب الغنية ويستفحل بؤس الشعوب الفقيرة ٠٠٠ لا يسعنا إلا أن نذكر بعضنا بعضا بأن المتهم ليس العلم ولا عملية أبولو بالذات وإنما هو الانسان الذي يعاني أزمة ضمير ويتجرع غصص تناقض ذاتي وجودي اذ هو بقدر ما يغزو الفضاء ويكشف من أسرار الطبيعة يبدو جهله بنفسه متفاقما واعراضه عن معرفة ذاته مستفحلا وعجزه عن تزكية ضميره متزايدا ٠

(*) «Avec la science, l'homme a maintenant un corps qui va jusqu'aux étoiles. Mais ce corps attend un supplément d'âme» (Henri Bergson)

ولو فرضنا ان عملية أبولو لم تنجز وان الاعتمادات الضخمة لم ترصد للبحث العامى فى شؤون الفضاء فهل نحن واثقون من أنها كانت تنفق فى سبيل مقاومة الفقر والأمية والأخذ بيد الشعوب المستضعفة ؟ لا اعتقد ذلك ٠ ويكفى أن نتذكر ما لا تزال غالب الدول الكبرى الى اليوم ترصده لصنع الأسلحة الفتاكة ونعيد الى الأذهان حجم الطاقات المادية والبشرية المنصرفة اليوم الى الحروب السخنة والباردة وما تخصصه بعض الشعوب المستضعفة - هى أيضا - من اعتمادات فى ميزانياتها لشراء عتاد حربى كثيرا ما تتجاوزه الأحداث ، غفلة منها وتصورا زائفا للمناعة والحفاظ على السيادة !

يكفى أن نتذكر كل ذلك لندرك أن الأزمة هى أزمة حضارة قبل كل شيء أى أزمة الضمير الانسانى ٠

وعلى هذا الصعيد فان المتأمل فى شؤون الانسان فى هذا الثلث الاخير من القرن العشرين لايمكنه ان لايبصر الغيوم المتراكمة فى الأفق إذ أصبحت ظاهرة التلوث والتفكك الايكولوجى فى مقدمة مشاغل الانسانية التى ادركت أن الجنس البشرى نفسه أصبح مهددا بخطر المحق نتيجة عدم اهتدائه الى السيطرة على اختراعاته وتقدمه الصناعى العظيم ومغالبة جشعه وأنانيته ٠

ثم إن خطرا باطنيا يهدد هو أيضا الأجيال الطالعة أى مستقبل البشرية ، نتيجة أزمة التربية فى كل البلدان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية خاصة ، واختلاط القيم عند الأولياء والابناء وترك أولئك هؤلاء وشأنهم بدعوى الحرية ومقتضيات العصر ، والتضحية بكل شيء فى سبيل الظهور بمظهر العصرى المتفتح ! كأن المعاصرة الحق لا تقتضى التشبث بسلم قيم ثابتة ورياضة النفس حتى تعطى صاحبها المقادة وتذعن للعقل فيكون الضمير زماما ، متبوعا ، هاديا ٠

ولو اقتصرنا - فى هذا الباب - على ظاهرة واحدة من الأعراض التى تهدد الشباب فى الصميم ووقفنا عند سبب من الاسباب التى تهوى بالمرء الى درك الانحطاط لقلنا ان طلب الغيبة ومناهضة المجتمع والتوق الى الافلات من الوسط الاجتماعى وما يفرضه من جدل بين الحقوق والواجبات ٠٠٠ أدت الى الاقبال على المخدرات بوصفها مخمدات وستارا سميكا يحجب الحقيقة عن المدمن المحزون الامر الذى حدا بالمنظمات الدولية الى تحليله والتعرف على أسبابه والبحث عن أنجع الأساليب لمقاومته ، من ذلك الملتقى الدولى الذى انتظم بين رحاب مبنى اليونسكو فى ديسمبر الفارط ٠

ألم يقل رئيس الولايات المتحدة الاميركية : « إن الافراط في تناول المخدرات لهو عدو الولايات المتحدة الألد • واذا لم نتوصل الى القضاء على الخطر الذى تسلطه علينا المخدرات فانها هى التى ستقضى علينا لا محالة ؟ » •

ولقد أكد أخيرا ناطق بلسان حكومة ألمانيا الفيدرالية ان الخطر يتهدد صحة ما ينوف عن ثلاثة ملايين من الشبان الألمان وكشفت البحوث عن فداحة الخطب • ففى مدينة كولونيا اعترف 34 % من بين 400 تلميذ بالمدارس الثانوية تتراوح أعمارهم بين 13 و 21 سنة أنهم تناولوا مخدرات ولا يستبعد أن يكون 23 قد أقبلوا هم أيضا عليها •

واتضح من خلال بحث مماثل أجرى بجميع المدارس الثانوية بمقاطعة Schleswig Holstein أن 21،7 % من التلاميذ ذاقوا « الحشيش » مرة واحدة على الأقل وأن 9،7 % ينوون الاقدام على تجربته فى أول فرصة سانحة •

ولوحظت الظاهرة نفسها بسويسرا حيث تتراوح نسبة من تناولوا المخدرات بين 20 و 30 % من تلاميذ ثانويات لوزان ، كما لوحظت بهولاندا حيث استجوب 11000 تلميذ باحدى وعشرين مدينة فاعترف 11 % أنهم تناولوا المخدرات مرة واحدة على الأقل •

أما فى الدانمارك فيقدر عدد المتناولين لمشتقات القنب بمائتى ألف من بين 1.200.000 يمثلون عدد السكان الذين تتراوح أعمارهم بين 11 و 25 عاما • وفى فرنسا فان 90 % من بين المدمنين الذين وقع إيقافهم سنة 1971 ـ وعددهم 1878 ـ لا تبلغ أعمارهم 25 عاما •

ولا يمكن أن نحلل أسباب هذه الظاهرة المقلقة تحليلا أوجز ولا اوفى بالغرض مما جاء فى تقرير أحد الخبراء الدوليين :

« نحن نشهد أكثر فأكثر كيف توضع الهياكل العائلية والتربوية والدينية المحيطة بالفرد والموفرة للامن والطمأنينة موضع الشك وكيف يتزايد الشعور بالقلق والعزلة وانعدام الامن فيصبح سائدا وذلك لفقدان الحوافز الشخصية أو الجماعية فقدانا يؤدى الى رفض الالتزام تجاه عالم ومجتمع لا يرى لهما معنى أو غاية وكذلك لفقدان الضمانات الكافية فى ميدان الشغل واخيرا لما يطرأ على أهداف التعليم وغاياته من مراجعة جذرية » •

ولئن توسعنا فى الحديث عن ظاهرة تفشى داء المخدرات فى أوساط

المراهقين فذلك رغبة فى التأكيد على المخاطر التى تتسرب الى القوى الحية الطالعة وتهدد المستقبل ، واستشهادا على الأزمة الاخلاقية المستفحلة التى آستبدت بالانسانية وعلى التناقض الوجودى الغريب الذى جعل الانسان يسيطر على العالم الكبير الذى حوله ويضعف أيما ضعف فى السيطرة على الكون الذاتي الصغير ، فكأن إنسان اليوم ، ازاء ما ملكت يداه وما كشف عقله وأمام بحران وجوده الباطنى وخفوت صوت ضميره ، يناجي نفسه قائلا : أشكو منك إليك ٠

وإن هذه الغيوم المتراكمة فى الأفق ليس الانسان عاجزا عن مجابهتها اذا ما غير ما به ونزل المربين والفلاسفة ورجال الدين وعلماء الاخلاق المنزلة اللائقة بهم وأصغى إليهم ووازى فى سياسته بين شؤون الروح ونواميس المادة ٠

وليست المعركة ميؤوسا منها اذا ما اتفق أولو الأمر وهداة البشرية على ضرورة التحدى الجديد ، ألا وهو غزو الانسان عالمه الذاتى بعد أن غزا القمر وأخذ يفكر فى غزو المريخ ٠٠٠ وهو وجه من وجوه الثورة الثقافية !

وليس هذا التحدى الجديد فرارا الى الامام بل سعيا ذكيا وعزما حديدا وجهودا منسقة ومحبة خالصة من اجل تزكية النفوس وارهاف الضمائر وطلب الحقيقة والخير معا ٠

فهل يصدق الأمل ويحالف الجنس البشرى التوفيق كما حالفه عندما ٠٠٠ طلب القمر ؟

إن منادى المستقبل ينادينا ، نحن معشر البشر ، وقد « وضعنا القمر فى يسارنا » ، : لنكن واقعيين ، لنطلب المستحيل !!٠٠٠

محمد مزالي

رأي في الاصالة والناقد

بقلم : احمد المختار الوزير

سئلت عن الأدب والأصالة : ما الأصالة فى الأدب ؟

وسئلت : من الناقد فى نظركم ، وما تنتظرون منه ؟

فأجبت حضرة السائل :

ـ ما الأصالة ؟ ماذا لو قلت أمامكم : انى أشعر بالخجل ؟ أو قلت أمامكم : ان ذهنى ليتغيم صفاؤه · ويكفهر حين يستحضر هذه الكلمة « الأصالة » لقد امتحنتنى الأصالة امتحانا عسيرا قاسيا · ففى ذلك الغيب الذى لا تنفذ اليه عين ناظرة ، ولا أذن سامعة ، ولا لمسة رحمة من يد ناعمة ، ولا ابتسامة حنو دفيئة بالمحبة · هنالك فى وحدتى وتوحيدى ، كنت اكتب ما أجده حاضرا على لسانى من أبيات شعرى · حقا لقد كنت أضعف من أن أرفض الكتابة بيدى وقلمى معبرا عما تمليه على ذاتى · وكنت أقوى قوة من ذلك الصمت الذى كان يتحدانى فى سذاجة ، وكبرياء جنون ·

فما لم تكن هناك ذات شاعرة ، فلا أصالة · وما لم يكن هنالك ايمان بالذات الشاعرة ، فلا أصالة · وما لم يكن سمو الى أعلى منازل الاخلاص للذات الشاعرة ، فلا أصالة · وأين الطائر المحلق فى أجواء الرؤى ، ان قصصت قوادمه ؟ واين الطائر الغريد أن خضدت منقاره ؟ واين صورته ان تنصلته من زينة ريشه ؟ فاذا كانت كل كلمة من كلمات الشعر مفعمة بكل مقومات الذات الانسانية الحية الشاعرة ، وبكل خاصياتها ، فذلك عندى هو الشعر الأصيل ، والأدب الأصيل · وما لم يكن شىء من ذلك ، فذلك هو الزيف والبهرج ! وفى ادبنا التونسى كثير من الأصالة ، وكثير جدا من الزيف · وانه لينتظر انصاف حكم النقد · فهل وجد الناقد الأصيل ؟

يبلغ الناقد ان يكون فى القمة التى يسمو اليها الأديب الشاعر ، اخلاصا وصدقا ، فينفذ ساعتئذ ، نفاذا الى صميم الأثر الشعرى الذى وضع بين يديه ، فتمسه رعشة حياة ذلك الأثر ، وتضمه إشراقة نوره ، ويكاشفه سره ، وتدب فى ذاته نشوات موسيقاه ، وتشوق نواظره طيوف أحلامه ،

وأمانيه ، ويحيا مستغرقا في متاع من حياة ذلك الأثر الأدبي الشعري ، ومأخوذا كذلك بما فيها من غصص ، ودموع ، وابتسامات ، وطوالع استبشار • بل وبما فيها ، مما هو أبعد من ذلك عمقا ، وأبعد من ذلك اتساعا ، من لمحة الايمان بالوجود الحق ! ومأساة التحمل !

وإن الناقد المستكمل الفن ، والذوق الرهيف السليم ، لمباح له من الأثر الشعري ما هو مباح لغيره • ولكنه لما امتاز به ، من الحس الشعري ، وصحة الأداة يستأثر بما لا اقتدار لغيره عليه ، فيملأ كفيه من جنى الأثر الشعري وعطائه الدائم ، ويعود بذلك لأولئك المنتظرين ! أو ليس الناقد بهذا الصنيع أبر برا ، وأسخى سخاء ، وانه لا يستطيع أن يفعل اكثر مما قد فعل برا بالاثر الشعري • وبرا بمن مكنهم من توثيق صلتهم الغنية بما كان مباحا لهم ، ولم يقتدروا عليه !

واني لأعتقد اعتقادا أن هذا الناقد موجود بيننا ، بل اعتقد أن من بين من نعتز بهم هؤلاء النقاد الأفذاذ ، ومع هذا أجد مرارة الأسف ، إذ قد شغلتهم وظائفهم ، وما يضطلعون به من أعمال الادارة ، والسياسة شغلا كبيرا • فحرمنا من توفيق دلالاتهم ، وسداد آرائهم ، وحرمنا جميعا الافادة من عطائهم الذى لن يستعاض عنه بشيء • وصمدنا للصمت ، وما زلنا نصمد له !

ا• م• و•

في 10 — 6 — 72

• **ندوة تاريخية بالقلعة الكبرى :**

أشرف السيد محمد مزالي وزير التربية القومية ومدير مجلة « الفكر » في الشهر الماضي على الندوة التي نظمتها اللجنة الثقافية بالقلعة الكبرى حول موضوع « التاريخ المحلي ودوره في خدمة التاريخ القومي » ، وشارك فيها بعض أساتذة الجامعة والباحثين وقدموا دراسات حول مشاكل التاريخ وتدريسه ، وحول بعض المسائل المتعلقة بتاريخ الجهة •

بمناسبة زيارة السيد الهادي نويرة الى ارض الكنانة

تحية القاهرة

شعر : عبد المجيد بن جدو

لَكَ الْمَجْدُ يَا مَوْطِنَ الشُّهَدَاءْ   لَكَ النَّصْرُ يَا قَاهِرَهْ
وَيَا مَوْئِلَ الرُّسْلِ وَالأَنْبِيَاءْ   وَعِتْرَتِنَا الطَّاهِرَهْ
فَكُونِي رُجُوماً عَلَى الأَشْقِيَاءْ   عَلَى الطُّغْمَةِ الْغَادِرَهْ•

لَقَدْ عِشْتِ يَا نَجْمَةً أَلْفَ عَامْ   بِكِ الأَمْنُ مَوْطِنُهُ وَالسَّلاَمْ
يَحِنُّ لَكِ الْمُغْرَمُ الْمُسْتَهَامْ   وَتَعْشَقُكِ الأَنْفُسُ الشَّاعِرَهْ
فَمَاضِيكِ لَوْ لَمْ يَصِفْهُ الْكَلاَمْ   لَقَالَتْهُ أَمْجَادُكِ الْغَابِرَهْ•

لَكِ الْفَخْرُ وَالْمَجْدُ يَا قَاهِرَهْ

رِيَاضُكِ الْخَضْرَاءْ   وَنِيلُكِ الأَزْرَقْ
وَالثَّوْرَةُ الْحَمْرَاءْ   رَبِيعُهَا أَوْرَقْ

حَمَاماً تَعِيشِينَ فَوْقَ الْقِمَمْ   يَطِيرُ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ نَغَمْ•
أَيَا أُمَّةً لَمْ تَزَلْ فِي الأُمَمْ   إِلَى النَّصْرِ زَاحِفَةً سَائِرَهْ•
لَهَا هِمَّةٌ لَمْ تَزَلْ فِي الْهِمَمْ   عَلَى الظُّلْمِ قَائِمَةً ثَائِرَهْ•

لَكِ الفَخْرُ وَالْمَجْدُ يَا قَاهِرَهْ

يَا مَوْطِنَ الأَحْرَارْ   يَا فَجْرَنَا الْمُشْرِقْ
فَالصُّبْحُ لَوْلاَ النَّارْ   فِي الشَّرْقِ مَا أَشْرَقْ

بِكِ الْحَقُّ تَمْتَدُّ أَيَّامُهُ   وَتُورِقُ فِي النِّيلِ أَعْوَامُهُ
وَتُرْفَعُ فِي الشَّرْقِ أَعْلاَمُهُ   وَتُجْلَى بِهِ الْفِئَةُ الْجَائِرَهْ•
وَتَسْرِي عَلَى الشَّرْقِ أَنْسَامُهُ   وَتَعْصِفُ عَصْفَتُهَا الْكَاسِرَهْ

لَكَ الْفَخْرُ وَالْمَجْدُ يَا قَاهِرَهْ

كَانَتْ بِكِ الأَيَّامْ أَبْعَادُهَا أَعْمَقْ
يَا قَلْعَةَ الإِسْلاَمْ وَالْعُرْبِ فِي الْمَشْرِقْ
بِكِ الْفَنّ تُزْهِرُ أَعْوَادُهُ وَيَحْلُو وَيَعْذُبُ إِنْشَادُهُ
وَتَبْعُدُ بِالْفَنّ أَبْعَادُهُ بِهِ تَعْمُقُ النَّغْمَةُ الْحَائِرَهْ
وَبِالنِّيلِ يَلْقَاهُ رُوَّادُهُ تَجِيءُ بِهِ النَّسْمَةُ الفَاتِرَه

لَكَ الْمَجْدُ وَالْفَخْرُ يَا قَاهِرَهْ

يَا مُلْهِمَ الأَشْعَارْ فِي الْمَوْطِنِ الأَخْضَرْ
لَوْلاَكَ مَا الأَوْتَارْ رَنَّتْ عَلَى الْمِزْهَرْ
تُحَيِّيكِ تُونِسُ أَلْفَيْ تَحِيَّهْ تَحِيَّةَ مُسْلِمَةٍ يَعْرُبِيَّهْ
لِمِصْرَ لأُمَّةِ مِصْرَ الأَبِيَّهْ لِمِئْذَنَةِ الأَزْهَرِ السَّاهِرَهْ
لِمَنْ صَابَرَتْ فِي جِهَادٍ رَضِيَّهْ وَتَنْتَصِرُ الأُمَّةُ الصَّابِرَهْ

لَكَ الْمَجْدُ وَالْفَخْرُ يَا قَاهِرَهْ

ع. ب. ج.

◆ **ملتقى ابن منظور للغة والآداب والتاريخ :**

أقيم الملتقى الثانى لابن منظور بقفصة فى الشهر الماضى واحتوى على محاور ثلاثة :

1) محور اللغة وقد حاضر فيه كل من السادة : عبد الله كنون ، محمد حسين فنطر ، رشاد الحمزاوى ، عبد العزيز بن يوسف .

2) محور الأدب والثقافة وقد حاضر فيه السادة : أبو القاسم محمد كرو ، وأبو القاسم سعد الله ، محمد اليعلاوى ، المنجى الكعبى .

3) محور التاريخ والآثار وقدم بحوثه السيدة منيرة الرياحى ، والسادة : رشيد بورويبة ، محمد الشابى ، سليمان مصطفى زبيس.

من أجل حضارة تونسية منيعة

بقلم : احمد القديدي

ملتقى حضارات وبعد ؟

ليس من الصّدفة أو البداهة أن تشغل قضيّة التّونسة والتّعريب كافة مستويات التّفكير في بلادنا ، وتتصدر كلّ أجهزة الإعلام والثّقافة وتنال هذا القسط الوافر من الأخذ والردّ ومن السّؤال والجواب وأحيانا من التّحمّس والافراط فيه .

ويمكن أن نفهم تحتيات هذه القضيّة بالعودة لضروب نشأتها في تونس فنحن على اثر الاستقلال وجدنا أنفسنا في مفترق طرق حضاريّة على غير اهتداء، وقد غذت المصالح الاستعماريّة هذا الضلال وهذا الغموض ، فحاولت توجيهنا لنوع من الخضوع الجديد للاستعمار . إذ أنّه من المتعارف والأكيد أنّ الحضارات المتفوّقة تكنولوجيا تسعى في اتّجاه التّوسع و « الاشعاع » وفرض نفوذها إذا ما كانت رأسماليّة . وأحسن حقل لهذا التّوسّع يوجد في بلدان العالم الثّالث : المستعمر قديما والمستعد ذهنيا لتقبّل الاستعمار مهما كانت أشكاله .

وأمثلة قليلة وخاطفة تدلّ على أنّ البلدان « المستقلّة » حديثا لا تخرج تماما من ربقة الاستعمار ، بل تبقى بمساعدة « نخبتها » خاضعة للاستعمار الثّقافي تحت شعارات خلاّبة وخاطئة .

ومن هذه الشّعارات الّتي نرفضها في تونس : قول بعض

المثقّفين أنّ بلادنا « ملتقى حضارات » أي أنّها خلال كلّ تاريخها الطّويل لم تكن سوى حاضنة للحضارات ، متلقيّة للرّياح والعواصف ، غير مانحة قسطها . ومهما كان نبل المتحمّسين لهذا الشّعار فإننا نجزم بخطئه الفادح إذ هو : قبول للكسل الذّهني وعدم البحث عن جذورنا وعن مساهمتنا في بناء الحضارة البشريّة . فتونس كانت دائما متفتّحة للتّيارات الأجنبيّة ، فاتحة صدرها للثّقافات بفضل مكانتها الجغرافيّة على حوض البحر الأبيض المتوسط . لكن معنى كلمة « ملتقى الحضارات » تغيّر تغييرا كبيرا ، ممّا يلغي جدواها ويحيلها إلى تحريف للقيم . فلقد كانت بلادنا ملتقى حضارات بحقّ حينما كانت في مستوى هذه الحضارات ، تأخذ بقدر ما تمنح ، وأصبحت — أردنا أم كرهنا — متخلّفة عن ركب هذه الحضارات ولذلك أسباب عديدة أهمّها قرون الانحطاط الّتي تداولت ونحن في سنة من النّوم .

الأمبراطوريّة الثّقافيّة

ونحن لا نبتدع شيئا من تلقاء أنفسنا ، إذا أكّدنا ارادة الحضارات المتوسّعة على بلع الأمم النّاشئة (حضاريا) فقد أكّد ذلك أعلام هذه الحضارات أنفسهم وهم يدعون إلى « تعويض الأمبراطوريّة العسكريّة السّياسيّة بأمبراطوريّة ثقافية تتغلغل من خلال « التّعاون » واللّغة والتّفكير ... » وآخر هذا الطّابور الاستعماري الجديد ما صرّح به ريمون كارتي على شاشة التّلفزة وخاصة نحو الجزائر مشيرا الى خطر التّعريب في الجزائر على مصالح الثّقافة الغربيّة في شمال إفريقيا .

ولا يخفى على كلّ متأمّل حصيف أنّ « جدلية » الحضارات

القويّة والحضارات الضّعيفة هي جدلية قديمة في التّاريخ : ولعلّ عبد الرّحمان ابن خلدون من أوائل علماء الاجتماع الّذين حلّلوا هذه الظّاهرة ، معتمدا المجتمعات الّتي عايشها ، وعالج موضوع « الغلبة » بدقّة منقطعة النّظير قائلا في مقدّمته : « وترى المغلوب يسعى لتقليد الغالب في سائر شؤون ملبسه ومأكله وعاداته » . فهل نحن أمّة مغلوبة حسب جدلية ابن خلدون ؟ وإذا كنّا كذلك فهل نكتفي بالخضوع لهذا القدر المحتوم والرّضى بالغلبة والهزيمة . أم نحاول بما لدينا من عناصر حضارية إقرار ذاتيتنا التّونسيّة وصيانتها من الاندثار .

حركات حافظت على كياننا

للتّاريخ ، نقول أنّ حركة المحافظة على القوميّة قديمة قدم الاستعمار ذاته ؛ فمنذ 1881 أي منذ انتصاب « الحماية » في تونس ، سقط أوّل شهيد مدافع عن أرضه ، وانطلقت اثر ذلك بقليل حركات عمّالية حاول تنظيمها محمّد عليّ وتوجيهها وجهة المحافظة باصرار على القوميّة من خلال مطالب نقابيّة استعملت في لهجتها وشكلها ما تضمنه الأطر الغربيّة من ديموقراطيّة و « انسانيّة » ؛ وتطورت حركة الاصلاح التّونسي لدى نخبة من المثقّفين التّقليديين اتّسم نضالهم خاصّة بطابع التّأثير بالشّعر ، فكانت القصائد التّونسيّة متأثّرة بنهضة محمّد عبده وجمال الدّين الأفغاني ، ونازعة للحفاظ على الذّاتية القوميّة . وإن لم تكن هذه الحركة الشّعريّة نافذة المفعول فلها شرف الاصداع ببعض الحقائق : (راجع كتاب الأستاذ محمّد الحليوي في الأدب التّونسي الحديث وما كان يدور من نشاط أدبي حول محاور القوميّة واللّغة العربيّة وكيان الاستعمار)

ويحس قارىء هذه البذور بافتقارها إلى ثقافة أعمق وأشمل ، وكان أغلب روادها من خريجي جامع الزّيتونة . ونشأت على اثر هذه التحرّكات حركة الطّاهر الحدّاد الاصلاحيّة الّتي لم تقتصر كما يظنّ البعض على تحرير المرأة بل تجاوزتها لاعطاء صورة نموذجيّة للمجتمع التّونسي والعائلة التّونسيّة صورة تتماشى والعالم الّذي نعيش فيه ضمن اطارنا الإفريقي العربي .

وكان لأبي القاسم الشّابي أخيرا مركز مرموق في إقرار هذه الذّاتية التّونسيّة ، حيث ساعدته ثقافته الواسعة ونبوغه الكبير على تجاوز نظرة الحركات السّياسيّة إلى التّعبير بشكل مطلق عن ارادة التّطور وارادة الحياة في شعبه . وامتزج حبّه العميق للشّعب بشيء من الغضب والعنف، وتلاشى صوته مع الأسف ولم تتأسس مدرسة فكرية، حاول الشّابي تركيزها أوّلا بقصائده الرّائعة ثمّ بمحاضرته حول الخيال الشّعري عند العرب الّتي جاءت بنظريات طريفة في البناء الأدبي وروح التّراث العربي وقيمته . ونتساءل : لماذا اقتصرت حركة الاحتفاظ بالذّاتية التّونسيّة على فترة ما قبل الاستقلال حيث صاحبت أطوار الكفاح التّحريري حركات مختلفة الأشكال متّحدة الأهداف ، منها مقاومة التّجنيس ، وتدريس اللّغة العربيّة والتّربية الإسلاميّة ؟

التربية والاجيال

ولا مجال في الإجابة عن هذا السؤال أن نستعرض التربية التّونسيّة وما قدّمته للأجيال الحاضرة من غذاء . فمما لا شكّ فيه أنّ المراجعة الوئيدة للتّعليم في بلادنا تدلّ على حيرة المسؤولين

... حيرة بناءة تناهض الرّضى والتّغافل ؛ فقد كانت اختياراتنا التربوية تهدف إلى شمول التّعليم دون رعاية الكيف وبَلْورة الرّوح وإقرار الهدف من هذا التّعليم ؛ فكان أن نقلنا جهازا تربويا غربيا عوض الجهاز الزّيتوني الّذي ينبع من القرون الوسطى . ولو أنّنا نعتقد أنّ الأوّل هو أخفّ الضّررين إلاّ أنّا نؤمن أن السّاعة دقّت لمراجعة هذه التّربية وشحنها بالأصيل من القيم حتّى نبعث للنّور أجيالا سليمة واعية .

ولا مندوحة لنا من الاعتراف أنّ الجيل التّونسي الّذي عاش في السّنوات الثّلاثين الأخيرة من عمر الاستعمار الفرنسي كان ينقسم إلى صنفين :

– صنف الزّيتونيين الّذين كان ردّ فعلهم ضدّ الاستعمار تلقائيا حيث أجابوا غزوه بنوع من الانكماش والمحافظة الكلاسيكيّة على « مظاهر » القوميّة من دين ولغة ولباس . ولابدّ أن نلاحظ أنّ ردّ الفعل هذا كان غير مدروس ممّا جعله يفقد جدواه أحيانا حيث انغلق جامع الزّيتونة وأصبح يتشبّث بظاهر القوميّة كاللّباس الّذي يتجلّى في الجبّة والشّاشية والكشطة رغم عدم ملاءمتها للحركة والسّلوك والعمل ، ممّا خلق فواصل أخرى بين أبناء الشّعب الواحد (شكليّة لا محالة ولكنّها ذات تأثير وأبعاد) .

– صنف المدرسيين الّذين زاولوا تعلّمهم باللّغتين وخاصة بالصّادقيّة ، ورغم أنّ الإدارة الإستعماريّة تحاول إستمالة هؤلاء إلى صفّها بزرع القيم الغربيّة فيهم .. إلاّ أنّ أغلبهم استعملوا

سلاحها ضدّها ، ونظروا للقيم المذكورة نظرة انسانيّة مطبّقين إياها في حركات سياسيّة تحوّلت إلى انتفاضة جماهيرية ووعي قومي كبير . وقد شعر هؤلاء بتحريف التّربيّة الّتي يتلقونها حيث أنّهم يتعلّمون مبادىء الحرّية والدّيموقراطيّة والعدالة وهم يعيشون في مجتمع ظالم وجاهل ومكبوت ..

ازدواجيـة لغويـة وفكريـة

وإذا حلّلنا وضعنا الحضاري والفكري الآن وبعد 16 سنة من الاستقلال وأردنا الاعتبار بالتّاريخ والاستفادة من دروسه وتعاليمه يجدر بنا أن نلغي من مواقفنا كلّ تعصّب أعمى وكلّ عُجب بالتّفكير الذّاتي حتّى لا نقع فيما وقع فيه السّالفون من الصّنفين . ويجدر بنا أن نحتاط من الزلل والانحراف والانغيار، وذلك رهين الحوار العلمي الّذي لا تشوبه العواطف المتأجّجة انطلاقا من مصلحة البلاد العليا . ولا تخفى على الدّارس هذه الذّبذبة الّتي تسود شبابنا في المرحلتين الثّانوية والعالية ، ذبذبة تبدو طبيعيّة للنّاظر العابر وهي تكتسي خطورة كبيرة . ويكفي أن نلقي نظرة على عدد نوفمبر 1970 من « كرّاسات مركز الدّراسات والبُحوث الاقتصادية والاجتماعيّة بتونس » لنلمس أعراض هذه الذّبذبة لدى الشبّان ، وهم يعيشون ثنائية غريبة تتجاوز التّعبير اللّغوي إلى تحريف التّفكير والمنطق . وعنوان هذه الكرّاسات هو : « بعض مظاهر الازدواجيّة اللّغوية في تونس » وردت فيها عدّة روايات وسبر للآراء وتحليل للسّلوك ... خلاصتها كلّها أن الشّاب التّونسي والفتاة التّونسيّة يحاولان التّخلّص من اللّغة العربيّة ومن المنزلة البشريّة الّتي تترجم عنها هذه اللّغة وتؤطرها ، ويحاولان مقابل

ذلك الظهور بمظهر « عصري » فيتكلّمون الفرنسيّة آخذين في ذلك عن الأستاذ والقيّم وعن المجلات والأفلام والبرامج المتلفزة والأغاني الفرنسيّة . وتنشأ عن هذه الازدواجيّة قطيعة بين بيئة الشّاب المتحفظة المسلمة « المتأخّرة » أحيانا وبين جوّ المدرسة والأصدقاء المغالط والمريح بزيفه .

بعض المواقف

ولا شكّ أنّنا – من خلال الكلام الكثير الّذي قيل – نستطيع تبيان مواقف مختلفة أهمّها :

- الدّعوة للّهجة العاميّة كحلّ بين اللّغتين ؛
- الدّعوة لفكرة تونس « ملتقى الحضارات » أي لا بأس أن نتّخذ الفرنسيّة كلغة آلية عمليّة ، تربطنا بالحضارات الخارجيّة (الفرنكوفونيّة) ؛
- الدّعوة للعربيّة دون ازدواجيّة أي نبذ الفرنسيّة وإقرار تعليم ينبثق من التعاليم الإسلاميّة والاتّجاه لقوميّة عربيّة دون انفتاح .
- النّداء بالتّونسة روحا مهما كانت اللّغة الّتي نتكلّمها ؛
- الدّعوة للتّونسة والتّعريب معا كشرطين من شروط إقرار ذاتية تونسيّة ؛
- الدّعوة لتونس في اطارها الإفريقي والمتوسطي باللّغتين .

أبعاد القضيّة ومعانيها

ونرى أنّه من خلال هذه المواقف ، تتراءى لنا الحجج

الكثيرة والدّلالات الوافرة ، حيث يستنجد المنادون بها بأمثلة البلدان الأخرى ويستعملون هياكل قديمة .

وأجدر المواقف بالدّرس في اعتقادنا موقف الأستاذ محمّد مزالي في افتتاحيات الأعداد الأخيرة من مجلّة الفكر وخاصّة عدد فيفري 1971 ؛ وقد أعطى فيه للقضيّة أبعادها ومعانيها الحقيقيّة ضمن إطار الحضارة المعاصرة وعبر تيارات الاستعمار الثّقافي الجديد (راجع تصريح السيّد فوشي وزير التّربية الفرنسي السّابق لمجلّة باري ماتش حين أكّد ضرورة تعويض الامبراطوريّة السّياسيّة القديمة بامبراطوريّة ثقافيّة .) .

وإنّنا حين نعتزّ بما يدعو إليه الأستاذ مزالي إنّما نؤمن بأنّ غيرته الصادقة على الكيان التّونسي تمتد إلى سنين عديدة ... ونؤمن أيضا أنّ فكرة حوار الثّقافات هي الضّامنة الأولى لاعتزازنا بشخصيتنا والموطدة لاقدامنا على طريق النّهضة والحرّية، لكنّنا نخشى أن نفتح الباب — من خلال دعوتنا التّقدّمية الهادفة — لبعض النّزعات الرّجعية الانهزامية فتستغل نداءنا وتكيّفه حسب أهوائها وجهلها لتجعل منه تراجعا عن السّعي ... ولقد رأينا عدّة أصوات تنادي باعادة التّعليم الزّيتوني أو.. وحتّى اعادة النظر في مجلّة الأحوال الشّخصيّة الّتي نعتبرها كسبا ثوريا نحسد عليه .

ورغم خشيتنا هذه وتحفّظنا ذاك فنحن لن نتراجع ، وسنكون يقظين فيما يخدش ذاتيتنا ويحاول التّأخر بها عن مصاف العصر ؛ فالتّعريب ضروري بالنّسبة لاداراتنا ومؤسّساتنا التّربويّة وفي

المواد الرئيسيّة التي تحدّد المناخ الفكري للتلميذ والطّالب .. ولكنّه ليس قاعدة دائمة ومحنطة .. فإنّ اللّغة الفرنسيّة يمكن أن تكون لغة انفتاح في بعض المواد العلميّة تلافيا لاضاعة الوقت .. ويمكن لنا استعمالها دون عقدة إذا تجاوزنا مرحلة اقرار شخصيتنا بفخر ونضال وتحصّلت بلادنا على أجيال قادرة غير مغلوبة وغير شاعرة بالنّقص .

الاطار الحقيقي للمشكلة

نحن نرفض أن نكون عربة من عربات تُجرّ خلف محرّك أجنبي ، لا طاقة لنا على تسيير شؤوننا ... وذلك صعب لا محالة وقد اخترنا الصّعب . كما أنّنا نرفض « التّعريب » السّياسي مثل رفضنا قبلا « التّصنيع السّياسي » أي التّعريب الّذي نندفع فيه دون رويّة بدافع من « الولاء والارادة » دون اعتبار بالعوامل التّقنيّة . وطالما استشهد لنا دعاة التّعريب السّياسي بأمثلة اليابان واسرائيل ، ناسين أنّ استعمال هذين البلدين للغتيهما لم يكف لصنع النّهضة الّتي تشهدانها ، بل أن نهضتيهما كانتا نتيجة تنازلات عن بعض مظاهر الاستقلال . فاليابان أراد فعلا أن يكون يابانيا صرفا لكن بعد الاندماج في حضارة رأسماليّة غربية قادمة من الولايات المتّحدة الّتي كفّرت عن ذنب تفجير قنابلها الذرّية على هيروشيما وناغازاكي . واسرائيل الّتي أرادت أن تكون اسرائيليّة فتحت هي أيضا باب الشّرق للاحتكارات الغربيّة والأمبرياليّة الجديدة – والمسألة لا تحتاج لكبير نقاش – فالقضيّة لدى هذين الأمّتين لا تنحصر في اللّغة والدّين والتّراث بل تتمثّل في الاندماج الكامل

ضمن « نماذج » مستوردة لها الغلبة في النّهاية . فهل نرجو لوطننا مصيرا كهذا ؟

ومخطىء أيضا من يعتقد أنّ مسألة التّعريب والتّونسة مشكل خاطىء وهو ما زعمه بعض مثقّفينا ، معتمدين في ذلك على أنّ الفكر يمكن أن يكون تونسيا مهما كانت اللّغة الّتي ينطق بها ، فقد غاب عن هؤلاء أنّ اللّغة ليست فقط أداة تعبير بل هي كائن حضاري حيّ يحمل صورة معيّنة عن المنزلة البشريّة واطار لهذه المنزلة ؛ فمن البديهي أنّ الّذي يتكلم الفرنسيّة ويتعامل بها يتنكّر لجزء من كيانه وتراثه ويلبس رداء ثقافيا آخر ويتصوّر العالم على غير صورته الحقيقيّة ، ويتفسّخ عن قسم كامل من أقسام شخصيته بدون دراية منه أو اختيار ، فالجدير بنا ترسيخ العربيّة وتوطيدها ثمّ اتقان اللّغات الأخرى (مع الحذر دائما من خطر التّعصّب وفتح الباب في وجه النّاعقين في أبواق الرّجعيّة) .

استجابة لعبقرية الأمّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ أمّتنا التّونسيّة على درجة من النّضج والوعي كبيرة ، مشجعة ، حيث تثار قضيّة التّونسة والتّعريب في وقت مناسب مع بقيّة الأمم النّامية . فإنّنا نتتبع ما يجري مثلا في الجزائر وحتّى لدى السّود في الولايات المتّحدة ولهم قضية مشابهة حيث يبحث مفكروهم عن إقرار شخصيّة قوميّة فريدة لا تندمج تماما في المجتمع الغربي الأمريكي .. وهذا مثال لنضال الأقلّيات حتّى داخل الحدود الحضاريّة وضمن تياراتها (راجع كتابات جورج جاكسن في العدد 263/264 من مجلّة « الأزمنة الحديثة » جانفي 1971) .

ان خلاصنا يكمن في تطوير فكرة « حوار الثّقافات » التي تقتضي منّا أيمانا عمليا بمقوّمات بلادنا وتاريخها وامكانياتها لمواجهة المستقبل ، وقد أخطأ من قدّس حضارة الغرب وسجد لها بشعور احتقار لحضارة تونس التّونسيّة ، أخطأ لأنّه نسي أنّ النّموّ مشكل نسبي لا مطلق ، وذلك ما حلّله أحد رجال السّياسة والاقتصاد الفرنسيين جان جاك سرفان شرايبر في كتابه الشّهير « التّحدّي الأمريكي » وقد أشار فيه إلى نسبيّة الحضارة الغربيّة وضآلتها « روحيا وثقافيا » أمام الإمكانيات الخفيّة للأمم النّامية .

إنّ الانتصار الّذي حقّقته فكرة التّونسة والتّعريب يكمن في كون النّخبة المثقّفة الطّلائعيّة هي الّتي تبنّاها وتدعو لها ضمن اطار معقول ومدروس يستجيب لواقع بلادنا وعبقريتها الفريدة ، وبذلك نضمن مناعة السّعي نحو هدف أمّتنا الأوّل : الاستقلال الثّقافي والتّربوي والفكري الكامل الشّامل ، مناعة تنجو من الدّعوات للسير للوراء والتّخلّف عن ركب النّهضة : هذه النّخبة الّتي لا تحمل عقدا ولا حقدا لأنّها تتقن اللّغتين وأكثر ، وتكتب باللّغتين ، وهي مشحونة بالمبادىء الإنسانيّة وقويّة على مواجهة المستقبل ، ومعتزة بمكاسبها ، ومؤمنة بالغد الأفضل .

ا ق ٠٠

غصن ريحان على ضريح صدقي اسماعيل (*)

بقلم : علي مصطفى

صدقي اسماعيل قمة انزلقت عنها النسور ، وقلم تكسر قبل ان يجف مداده .

كان مشدودا كالوتر الذي يطلق سهاما صائبة نحو قضيته ، واحترق في وهج مبادئه وقيمه لانه كان متطابقا في سلوكه وصدق الكلمة .

لقد حمل في قلبه الكبير هموم هذه الامة وجراحاتها ، غير ان الجراحات المتوالية اطفأت ذلك الكبير وهو في عنفوان ثورته .

ان المراثي هي عادة قديمة ولكن لا بد من غرس بعض الرياحين على ضريحه الصامت .

هذي رؤاك على عيني تنسكب
فيرعف الجرح في آهي ويصطخب

مات الشباب وفي قلبي ألملمه
كجمرة في زوايا النفس تلتهب

ملاعب الصحب جفت في مجالسها
روائع الشعر والأنغام والطرب

رحلت فالشوك أوجاع بحنجرتي
وقد تحن على أوجاعها النوب

بالامس خلفت « انطاكية » وعلى
صخورها ألف جرح فيك ينتحب

تركت ودیانها الخضراء مرثية
فالنهر مبتئس والنبع مكتئب

وجئت فالوحدة الكبرى كعاصفة
يشدها للعلى الايمان والدأب

وللرفاق شموخ كالزمان وفي
أعماقهم لطلوع الشمس مرتقب

أين الرفاق وقد ضاعوا كشرذمة
منبوذة وتساوى الصمت والصخب

(*) هو نائب رئيس اتحاد الكتاب السوريين ، وكان صحفيا لامعا وكاتبا موهوبا . ترك عددا من المترجمات والمؤلفات ، واخوانا كثيرين آلمهم فراقه المبكر .

صدقي ويؤلمني اني اعيـد عـلى مسامع القوم ما ضجوا وما جلبوا
ناموا على بهرج الضوضاء في ترف وأرضنا في مهب الريـح تستلب
وهبت في عتمة التاريخ ما وهنت عنه الشموس وما ضحوا وما وهبوا
وكنت صوتا وسيفا راعفا ابدا ، تكسر السيف ، تاح الفكر والادب
نامت دمشق وفي اجفانهـا مـزق في قنبها الصمت والتسهيد والتعب
حنت عليك فان القبـر يحضنـه حزن الرفاق وتبكي صمته السحب

ع٠ م٠

◆ ضيـوف :

★ نزل الأستاذ **عبد الله كنون** الكاتب العام لاتحاد الكتاب المغاربة ضيفا على الجامعة التونسية لالقاء جملة من المحاضرات ، وقد أنسنـا بلقائه وتسلمنا منه شاكرين كتابيه « على درب الاسلام » و «العصف والريحان » ٠

★ حل بتونس في أواسط الشهر الماضي **الدكتور سهيل ادريس** مدير مجلة « الآداب » ورئيس اتحاد الكتـاب اللبنـانيين ، وكانت زيارته للاتصـال بهيئـة اتحـاد الكتـاب التـونسيين في نطـاق الاستعدادات الجارية لتهيئة مؤتمر الأدباء العرب التاسع المقرر عقده بتونس خلال شهر مارس المقبل ٠

★ تضمن برنامج الاسبوع الثقافي الجزائري الذي نظم بتونس في الشهر الماضي سلسلة من المحاضرات يلقيها الاستاذ **أبو العيد دودو** ، ولهذا الأديب الجزائري صلة قديمة بمجلـة « الفكـر » التي نشرت العديد من قصصه منذ سنواتها الأولى ٠

★ زار الاستاذ **عبد الكريم غلاب** رئيس اتحاد الكتاب المغاربة ومدير جريدة « العلم » تونس في نهاية شهر ديسمبر لحضور الملتقى المغربي للصحفيين ، واغتنم هـذه الفرصة للتحادث مع السيد محمـد مزالي رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ، وثلة من أعضاء الاتحاد ٠

نهاية حلم

البشير المجذوب

ما عساى أرتجى من هذه المرأة ٠٠٠ من هذه الأنثى الولود قد انتشر نسلها من حولها كالقطط تتواثب وتتصايح وتملأ القاعة ضجيجا ٠ بعضهم يبكى ويستغيث والبعض يبطش ويعربد ويلوذ الجميع بالأم يختصمون كلهم شاك ومشكو ٠ وينضم أصغرهم الى الجماعة بموائه عالقا بصدر أمه يتحسسه ينشد الرى وسط هذه المعمعة العنود ٠

والبعل الرصين هانىء مستريح يبارك المولود الجديد وقد أضافه الى قائمة الرزق والمكسب ٠ أنثى تلقح وتضع فى كل سنة أو سنتين ٠ وهل أفضل من نعمة الخلق والانجاب نؤتاها متجددة متصلة ! ؟ ٠

جلست أسارق النظر اليها من حين لآخر استنطق الملامح التى فى عينى عن صورة أخرى بعيدة محجبة ٠ أستوضحها فلا تبين كما لو كان الوجه وجهين أحاول التقريب بينهما عبثا ٠

ومع ذلك فالوجه هو هو لم يكد يتغير وان مضى عقد من السنين !

هى ذى المحاسن التى قيدتنى وهمت بها ردحا من الزمن هياما ٠٠٠ عيناها الشهلاوان وسرهما الفريد لا تدرى أهو فى اللون المؤنس المبهج أم فى النظرة العارمة تهتك حجب النفس تنفذ فورا الى الأعماق ٠ مزيج لطف وبشاشة وتمنع وإباء ٠ ضدان يتداولانك تحار بينهما فتقلق وتطرب ألما لذيذا ٠٠٠٠

وهذا الجسم الأهيف لا يزال كما بالأمس يزهو شبابا ونضارة ويهتز عند أى بادرة منها ظرفا ورشاقة ٠

ما من حركة لك يا حبيبتى ، ما من هيئة الا وهى مستحبة مستطرفة !

أتذكرين يوم كنت متمددة على السرير تقضمين قرصا من الحلوى وقد تناثر شىء منه على الفراش ٠ كنا فى حديث واذا أنت تحدقين الى فجأة وفى

عينك استفهام وتوجس · توقعت انكارا منى لهيئتك · أحسست أنك لم تكونى لائقة مهذبة ···

لا يا صغيرتى لا بأس عليك · كل ما تفعلينه جميل رائع كما لو أقرته نفسى سلفا أو صيغ على هواها ومنتهى ذوقها · فكأن كل ما تفعلينه تلبية لرغبة دفينة فى نفسى وكأن فى مجرد وجودك ومحض تصرفك تعبيرا عن ذاتى وذاتك معا ·

وملاعبتك للقطة الصغيرة وحوارك معها تناغينها حتى كأنها تفهم عنك وتستجيب لك · موقف لا ألطف منه ولا أبهج على بساطته كان فى الحقيقة فرصة لمناجاة القلوب والتماس المزيد من الأنس غاية الأنس والعطف والانسجام ·

ويوم رأيتك فى فستان جديد لا زوردى اللون أنسب ما يكون لقوامك البديع كتمتها صيحة : رباه ! ما أجملها ! أيكون كل هذا الحسن لى ··· هذا العطاء الجم ··· كل هذا النعيم · أنا لا أصدق · أنا لا أكاد أطيق ···

كنا نلتقى على الجليل والصغير صفحة من كتاب أو باقة من الزهر · شىء من الموسيقى أو نكتة أو بعض اللعب فتأتلف الروح بالروح وتتحد وتتشف الاسرار كأن قد ارتفع الحجاب حجاب الجسد · لحظات أستمع فيها اليك فيخيل لى أنى أصغى الى نبض كيانى وكأن نفسى تحادث ذاتها صفاء واشراقا

هيهات ! انك لواهم وكأن شيئا من ذلك لم يكن ·

الصمت كالمسافة الحرام ··· كالهوة السحيقة لا أمل فى تخطيها · ليس الا الصمت منتصبا بيننا · وهذا الوجه البعيد البعيد بين يدى على قيد خطوة منى صفحة بيضاء ممحوة غسل عنها وجودنا المشترك غسلا ·

ونتبادل النظر ـ من خلل حديث اللياقة والمجاملة ـ كغريبين التقيا عرضا لقاء عابرا لا تتحرك النفس منهما تحفظا واحتياطا ، توجسا وارتيابا ·

ترانى أحببت هذا الشخص حقا ! ؟

أى سر فيه قد استهوانى فانجذبت اليه صاغرا مدحورا ؟

ماذا بقى من امرأة قصرها خيالك وحسك على الجمال ··· كأن ليس لها معنى الا أن تكون····الا أن تشع حسنا وتفيض من حولها البهجة والنعيم !؟·

إنسية ارتفعت فى نفسك وتعالت فاذا هى شىء قائم بذاته قبس من واجب الوجود ·

وأنا الذى كنت أشتاق الى رؤيتها وحسبتنى لا أزال أهفو اليها حبا !؟ ·

ومع ذلك فان بك شيئا يتململ ··· ذكرى دفينة تريد أن تكون ··· كالقشعريرة تهز كيانك فجأة فاذا قلبك يخفق متوهجا من جديد ويضطرب ·

ها أنت تملأ عينيك منها ··· تتشرب حسنها ··· تريد أن تلبسها · كالساحر العبقرى تطاول الزمن وتتحداه فاذا هى التمثال الرائع البارد تحاول عبثا أن تبث الاحساس فيه وتبعثه الى الحياة بعثا ·

وداعا أيها الماضى ! لقد مات الحب ولن يكون ثمة لقاء الى الأبد ·

ب·م·

◆ وزير الثقافة الجزائرى بتونس :

حضر الدكتور أحمد طالب الابراهيمى وزير الثقافة الجزائرى للاشراف على اختتام الاسبوع الثقافى الجزائرى الذى نظم بتونس خلال الشهر الماضى ، ولتوقيع برنامج المبادلات الثقافية لسنتى 72 — 73 وينص هذا البرنامج على تبادل الزيارات والخبرات ، وعلى تدعيم التعاون فى ميادين المسرح ، وتدريس الموسيقى والفنون الجميلة ، وترويج الكتاب ، وتوزيع الصحف ، والانتاج الاذاعى والتلفزى ·

محمد البشروش

والنقد الأدبي في تونس
خلال النصف الأول من القرن العشرين

بقلم : عبد الحميد سلامة

تمهيد :

لم تتضح معالم النقد الادبي في تونس الا في النصف الاول من القرن العشرين عندما نشطت حركة الترجمة والطباعة والتأليف (1) وازدهرت الصحافة واولت اهتمامها بشؤون الثقافة والادب (2) وتعددت المحاضرات التي تقيمها مختلف النوادي والجمعيات (3) واشتد الاتصال بالغرب وبمقاييسه

---

(1) نذكر على سبيل المثال تكوين « اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية » سنة 1342/1923 برئاسة المستشرق وليم مرسي وعضوية سبعة أفراد من أبرزهم المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ٠ وتأسيس « دار العرب للطبع والنشر » لصاحبها زين العابدين السنوسي وما قامت به من نشر « ديوان مصطفى آغة » و « ديوان الشاذلي خزندار » وكتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » للطاهر الحداد وكتاب « الخيال الشعرى عند العرب » لأبى القاسم الشابى ٠٠٠

(2) أهم المجلات والصحف المهتمة بالادب في ذلك العصر وهي : جريدة « النهضة » التى صدرت سنة 1924 وجريدة « الزمان » التى صدرت سنة 1929 ومجلة « العالم الادبى » التى صدرت سنة 1930 ومجلة « الأفكار » التى صدرت سنة 1936 ومجلة « المباحث » التى صدرت سنة 1938 ٠٠٠

(3) نذكر من الجمعيات « جمعية المؤلفين والكتاب » وجمعية « الخلدونية » وجمعية « قدماء الصادقية » وما قامت به من محاضرات مختلفة أثارت حولها ضجات كبرى من النقد والتعليق مثل محاضرة أبى القاسم الشابى حول « الخيول الشعرى عند العرب » فى فيفرى 1929٠٠٠ومثل الحفلات التى كانت تقع لتأبين الادباء مثل : حفل تأبين جبران (جوان 1931) وحفل تأبين الشابى (نوفمبر 1934) ٠

العلمية ومناهجه الفكرية ، وقوى الارتباط بالمشرق وحيرته فى اختيار المثل العليا التي ينبغي ان يقوم عليها الادب العربى الحديث ... وقد وجدت هذه العوامل فى تونس تربة خصبة للنمو والازدهار ما لبثت ان تمخضت عنها مناقشات أدبية اتخذت صورا عديدة للآراء والنظريات التى أبداها الادباء حول القضايا التى كانت تشغل بالهم فى ذلك العصر وهى : قضية القديم والحديث (4) وقضية النقد وقواعده الفنية (5) وقضية تطوير اللغة (6) وقضية تجديد الشعر (7) . وقد برزت تلك القضايا الادبية ضمن ثلاث مساجلات هامة وهى :

---

(4) راجع على سبيل المثال :

أ ــ التيجانى بن سالم (التجدد الادبى) بمجلة (العالم الادبى) ص (24) س (1) ع (2) 1930 .

ب ــ محمد صالح المهيدى (بين القديم والجديد) بمجلة (العالم الادبى) س (1) ع (3) 1930 .

ج ــ مصطفى خريف (الابتكار والتقليد) بمجلة (العالم الادبى) س (1) ع (10) 1930 .

(5) راجع على سبيل المثال :

محيى الدين القليبى « النقد والتأليف عندنا » بمجلة (العالم الادبى) ص (33) س (1) ع (4) 1930 و (تمهيد) قدمت به جريدة (الزمان) الفصول النقدية التى كتبها البشروش تحت عنوان « الأصنام الثلاثة » (الزمان) ص (2) س (4) ع (144) 1932 .

(6) راجع على سبيل المثال :

أ ــ زين العابدين السنوسى (الأدب القومى) بمجلة (العالم الأدبى) ص (2) س (1) ع (7) 1930 .

ب ــ محمد عبد الخالق « الأسلوب » بمجلة (العالم الأدبى) ص (3) س (1) ع (9) 1930 .

(7) نذكر على سبيل المثال :

أ ــ محمد الحليوى (الشعر فى تونس) بمجلة (العالم الأدبى) ص (1) س (3) ع (22) 1932 .

1) مساجلة حول (الأدب القومى) .
2) مساجلة حول (استفتاء العالم الأدبى) .
3) مساجلة حول (لصوصية الشعر) .

أولا ـ مساجلة الأدب القومى :

نشرت جريدة « السياسة الاسبوعية » المصرية بتاريخ 28 يونية 1930 دعوة لستة من الادباء الشبان ينادون فيها كتاب بلدهم الى تمصير الادب حتى يصبح مصريا خالصا من كل شائبة وذلك بخلق أدب محلى يتميز بالطابع المصرى وبانشاء لغة أدبية جديدة مصرية الحس والشعور ... (8) .

وانقسم الادباء التونسيون على انفسهم فى اتخاذ موقف من هذه الدعوة فقام بعضهم مرحبا مؤيدا مثل محمد البشروش ومحمد الحليوى ... وقام البعض الآخر مستنكرا مثل زين العابدين السنوسى ومصطفى خريف ...

موقف محمد البشروش :

نشر البشروش : بجريدة « النهضة » سنة 1930 تحت امضاء (محمد عبد الخالق) مقالا بعنوان « دعوة الى تكوين أدب قومى » (9) رحب فى مستهله بهذه (الدعوة المباركة لنخبة من الكتاب الفضلاء من أبناء مصر البررة) ثم شرع فى توضيح مفهوم الادب القومى كما بينه بعض المصريين ، فيقول « يدعو الاخوان المصريون الى ان يكون كل شعب من الشعوب العربية أدبا

ب ـ أبا القاسم الشابى (الشعر والشاعر عندنا) بمجلة (العالم الأدبى) ص (2) س (3) ع (28) 1932 .

ج ـ الحليوى والبشروش والشابى : فصول نقدية دارت بينهم حول : « اللصوصية فى الشعر » جريدة (الزمان) الاعداد 238 ـ 239 ـ 242 ـ 244 ـ سنة 1934 .

(8) زين العابدين السنوسى (الأدب القومى) بمجلة (العالم الأدبى) ص (2) س (1) ع (7) سبتمبر 1930 .

(9) محمد عبد الخالق (الأدب القومى) جريدة (النهضة) 1930 وقد أعاد نشره السيد محمد الحليوى فى كتابه (فى الأدب التونسى) ص 165 .

قوميا حتى يكون لكل بلاد عربية أدب تتلمس فيه روحها ونفسيتها وتظهر به للعالم أمة مستقلة لها مميزاتها » (10) ·

ويلاحظ بعد ذلك ان العرب يملكون أدبا يصور الروح العربية عامة ولا يميز شعبا عن شعب آخر ولهذا فحرى اليوم بالتونسيين ان يقتفوا أثر المصريين :

«··· نحن هنا فى تونس وجب علينا تبليغ هاته الدعوة الى مسامع اخواننا التونسيين عساهم يتنبهون فيقتفون أثر مصر الناهضة ويتبعون خطاها»(11)·

ثم يتساءل ما اذا كان لتونس أدباء قادرون على القيام بتلك الدعوة فيجيب بالتأكيد قائلا :

« نستطيع ان نقول فى غير تردد : ان التونسى اذا سار فى المسعى الذى ندعو اليه سيضرب بسهم وأى سهم وسيأخذ المكانة اللائقة به · ونظرة واحدة على ما أنتجته قرائح شبابنا لا تترك لاحد منفذا يعارضنا به · فان لنا اليوم فى أمثال الشابى والحليوى وغيرهما من الشباب الحى - اذا ساروا فى طريقهم هازئين بالعراقيل التى تقف دون غاياتهم لآمالا ستمهد لتونس لان تأخذ مكانة عالية بين الآداب » (12) ·

ونتبين مما سبق أن البشروش متحمس الى خلق شخصية تونسية متميزة عن غيرها من شخصيات الاوطان العربية الاخرى ودعوته هذه هى فى الحقيقة ذات غاية مزدوجة الهدف ، منها اشعار سلطات الحماية اولا ان تونس لها كيانها الخاص واشعار عرب المشرق ثانيا ان تونس لها ذاتية مستقلة · ولذلك فهو يريد ان يحرك سواكن التونسيين الى تجلية القومية فى الادب التونسى الحديث ·

الا ان « المشرف على صحيفة (النهضة) الذى يوقع باسم « الصاحب » قد أتبع كلمة البشروش بهامش من عنده رفض فيه هذه الدعوة وأنكرها وارتاب

---

(10) محمد عبد الخالق : المرجع المذكور · نفس المكان ·

(11) المصدر السابق : نفس المكان ·

(12) المرجع السابق ·

فى غايتها وتوقع منها أخطارا على العرب والعربية وشراكا منصوبة من طرف المستعمرين » (13) ·

ووقف السيد محمد الحليوى مؤيدا لدعوة البشروش واصفا اياها بانها فكرة شريفة ترمى الى غرض شريف نافيا ان يكون فيها كيد للغة او قضاء على القرآن او انفصام العروبة او خطر على الادب العربى (14) ويشمل الخلاف (تمصير اللغة) فيشتد النقاش فى هذا الموضوع بين (الصاحب) والحليوى (15) ثم يتوسع نطاق المساجلة بشأن الادب القومي ويشارك المرحوم زين العابدين السنوسى فى الحوار بفصل نشره بمجلة (العالم الادبى) تحت عنوان (الادب القومى) (16) يلاحظ فيه انه لا يقبل هذه (الشعوبية) التى تريد انشاء لغة ادبية جديدة مصرية الحس والشعور · ويرى انه « اذا كان ما طالعنا من خلال هاته الدعوة صحيحا وانهم أرادوا بها تمصير الادب فى جميع أجزائه (حتى لهجته) فاننا لا نراها الا نزعة من نزعات الشيطان الخبيثة » (17) ·

وهكذا يتحول الخلاف حول قومية الادب الى خلاف حول قومية اللغة والاسلوب · ولم يمنع هذا البشروش من ان يبقى وفيا لفكرة الادب القومى فينادى بوجوب الكتابة باسلوب تونسى متميز عن غيره من الاساليب العربية لان ابرز مادة تمكن الغير من معرفة خصائص كل شعب على حدة انما هو الاسلوب ·

دعوة الى تكوين أسلوب تونسى :

نادى البشروش فى مقال نشره سنة 1930 (18) بان لكل أمة أساليبها

---

(13) محمد الحليوى : المرجع المذكور ص (166) ·

(14) المرجع السابق (حول الادب القومى) ص (166) ·

(15) المرجع السابق (الرد على الصاحب) ص (171) ·

(16) زين العابدين السنوسى (الادب القومى) المرجع المذكور ص (2) ع (9) بتاريخ سبتمبر 1930 ·

(17) المرجع السابق : نفس المكان ·

(18) محمد عبد الخالق : (الاسلوب) العالم الادبى ص (3) س (1) ع (9) · بتاريخ نوفمبر (1930) ·

المميزة لها في الكتابة والتفكير فقال : « الاسلوب خاصة من خواص التفكير ، فلكل أمة اساليبها الخاصة بها في الكتابة والنظم لان لها طرقا في تناولها للمسائل وعرضها على محك الفكر ... فليس لأمة اساليب تشبه أساليب أمة اخرى لانه ليست نفوس الامم واحدة في تفكيرها وشعورها » (19) .

ويعرج بعد ذلك على قضية الابتكار والتقليد في اللغة فيتساءل : « لماذا المحافظة على الاساليب العربية ؟ » ويجيب بأننا قد ورثنا اللغة العربية وأصبحت لغتنا ، لنا الحق ان نجعلها كما تشاء نفوسنا وواجب علينا مداواة مواطن الضعف فيها « وللوارث حق التصرف فيما ورث فهي كأرض ورثناها فمن خطل الرأى ان لا نتصرف تصرف المالك في ملكه ونتركها في حالتها القديمة فلا نستفيد منها ما يقتضيه تطور الحياة ان نستفيده زعما منا انها أرض الذين بادوا وانقرضوا » (20) .

ويحرص عبد الخالق على تبرير موقفه والخوف من ان يتهم بالتطرف الذى ذهب اليه بعض الكتاب فيقول : « لسنا نقصد بدعوتنا الى عدم التقيد بالقواعد العربية كما يدعو جبران وأمثاله من كبار أدباء المهجر (21) ، ولسنا ندعو كذلك الى استعمال الالفاظ على علتها سواء كانت تقع في الذوق موقع الجمال أو وقعت موقع الثقل والركاكة ... فنحن ندعو الى الجمال في التركيب والالفاظ والى الوضوح والقوة في العبارة والى الحرص على القواعد العربية ولكننا نريد بما قلناه ان تكون اساليبنا تونسية قبل كل شيء مستمدة من النفس التونسية والتفكير التونسى » (22) .

وهو يعتقد ان المحافظة على أساليب العرب وهم نظرى لانه لا يمكننا لنا (هكذا) محاكاة العرب القدامى في أساليبهم كما يمكننا محاكاتهم في لباسهم وطرق عيشهم ومن هنا فهو يصر بحرارة على الدعوة الى خلق أدب تونسى له

---

(19) المرجع السابق : نفس المكان .

(20) المرجع السابق : نفس المكان .

(21) يقصد بذلك استهانة ادباء المهجر باللغة وقواعدها من ذلك ان جبران كتب متحديا (لى لغتى ولكم لغتكم) وان ميخائيل نعيمة هاجم التقيد بقواعد اللغة باعتبارها طلاسم واسمالا بالية على فكر جليل (الغربال) .

(22) مجلة (العالم الادبى) : نفس المكان .

أسلوبه الخاص به ويرى أننا نرتكب « **جريمة لا تغتفر اذا نحن قتلنا تفكيرنا لمعاناة محاكاة أساليب عربية ...** » (23) .

وقام مصطفى خريف في مقال نشره بمجلة (العالم الادبي) تحت عنوان « الابتكار والتقليد » (24) يستنكر فيه الدعوة الى ايجاد أدب قومي ويقول : ... « أفلا نستطيع ان نجيب ذلك الداعي المتحمس : (25) و « هل في الامكان أبدع مما كان .. ! » (26) ثم يلفت خريف انتباه عبد الخالق الى ان دعوته تلك تنادي بالابتكار الذي له دوافع نفسية خاصة لم تجتمع بعد عند الادباء التونسيين ... وان القومية نفسها غير محترمة حيث ان المثل العليا التي نترسمها ليست لنا (27) .

ويفتر الحوار بعد ذلك حول الادب القومي مدة أربعة عشر عاما تقريبا لينشط من جديد مع محمد البشروش عندما يعالج قضية الادب العامي .

الادب العـامـي :

نشر محمد البشروش مقالا بجريدة (الزهرة) بتاريخ 3 جانفي 1944 تحت عنوان (الأدب العامي) عالج فيه ثلاث أفكار رئيسية وهي :

أ ـ العمل على تقريب المسافة بين الادب العامي والادب الفصيح .

ب ـ طريقة كتابة هذا الادب العامي .

ج ـ هل يعتبر الادب العامي أدبا قوميا . ؟

وبخصوص الفكرة الاولى يصرح البشروش بأنه ليس من أعداء الادب العامي ولا هو من خصومه بل يعتقد ان وظيفته في حياتنا كبيرة خصوصا اذا

---

(23) المرجع السابق : ص (2) .

(24) المرجع المذكور ص (11) ع (10) بتاريخ ديسمبر 1930 .

(25) يقصد محمد عبد الخالق .

(26) مصطفى خريف (الابتكار والتقليد) المرجع المذكور ص (11) .

(27) المرجع السابق : ص (12) .

كان اتجاهه تقريب المسافة في الاسلوب والعرض والنزعة بين الادب الفصيح وبينه (28) ويرى أن العمل على تقريب المسافة بين الادبين واجب أكيد يتطلب منا الانصراف عن « الكلمات الدخيلة في لهجتنا التونسية ونشر الكلمات العربية بصورة تدريجية تضمن لها الذيوع والاستعمال والاقتراب شيئا فشيئا من الاسلوب العربي البسيط » (29) •

وبخصوص طريقة كتابة الادب العامي يلاحظ البشروش ان الناس يكتبون العامية بحروف عربية لا تمت الى قواعد الكتابة العربية بصلة من حيث الوصل والفصل وغيرهما وعليه « ليس هناك فيما نعتقد ما يمانع في تطبيق أصول الكتابة الفصيحة في كتابة العامية » (30) ويذكر لذلك أمثلة : « ••• (طلعتلو) كان الاولى أن تكتب هكذا : (طلعت له) و (أقي) في صيغة الامر كان الاولى ان يحذف حرف العلة من آخرها ••• » (31) •

ويعتبر البشروش في الجزء الاخير من مقاله ان الادب العامي أدب قومي فيقول : « أدب الفصيحة وأدب العامية عنصران للادب القومي لكل منهما مداه ولكل منهما وظيفته المستقلة استقلالا منشؤه الخصائص والحاجيات ولكنهما ينسجمان في المصدر وفي قرارة أفقيهما » (32) •

الا ان احد الادباء بامضاء مصطفى يرد عليه بجريدة (الزهرة) تحت عنوان (شعبي وعامي) (33) مخالفا اياه في تسمية ذلك الادب بالعامي فالتسمية حسب رأيه تدل على خور في التفكير لان أولئك الشعراء أبعد الناس عن هذا

---

(28) محمد عبد الخالق : (الادب العامي) المرجع المذكور ع (10442) س (57) ص (2) وقد كان الباعث على كتابة ذلك الفصل زجلا نظمه المرحوم علي الدوعاجي بعنوان (ميسالش) •

(29) المرجع السابق : نفس المكان •

(30) المرجع السابق : نفس المكان •

(31) المرجع السابق : نفس المكان •

(32) المرجع السابق : نفس المكان •

(33) مصطفى خريف : (شعبي وعامي) المرجع المذكور ص (2) ع (10456) س (57) بتاريخ 17 جانفي 1944 •

الوصف فان لطافة حسهم ورهافة أذهانهم تبعدهم عن صف العامة وتلحقهم بجدارة الى طبقة الخاصة المستنيرة ، أما خروجهم فى نتاجهم الادبى عن قواعد العربية الفصيحة فذلك أمر تقتضيه ظروفهم (34) ٠

وبعد ، فهذه المساجلة حول الادب القومى تبرز لنا فى جلاء ووضوح ان البشروش كان من الدعاة المتحمسين لخلق الشخصية التونسية وابراز مقوماتها الذاتية الى الوجود وأنه كان يحس حاد الاحساس بانتمائه الى مجموعة بشرية لها ثقافة متميزة بروحها ونفسيتها وفنونها التعبيرية الخاصة بها ٠ وما حملات التونسة والتعريب التى شغلت الرأى العام التونسى هذه المدة الاخيرة (35) الا امتداد لدعوة محمد البشرش التى بدأت منذ أربعين سنة تقريبا ٠

ثم ان هذه الازمة التى نراها قائمة اليوم بين الادب العامى والادب الفصيح كانت قد نالت اهتمام البشروش الذى لاحظ ان المسافة بين اللغة المكتوبة واللغة الملفوظة متسعة جدا فلا اللفظ ولا الاشارات ولا القواعد بمتشاكلة ولهذا اوصى بتقريب المسافة وتوفير الانسجام بين اللغة الملفوظة واللغة المكتوبة بأعتبار الادب ظاهرة حية لذاتية الامة وقوميتها سواء كان ذلك الادب فصيحا أو عاميا ٠

ثانيا ـ مساجلة استفتاء مجلة (العالم الادبى) سنة 1932 :

تمهيـــد :

نظمت مجلة (العالم الادبى) سنة 1932 استفتاء تطلب فيه من قرائها اختيار أشعر الشعراء الثلاثة للشمال الافريقى وقد جاء فيه « من هم الشعراء الثلاثة الذين تفضلهم ويروقونك أكثر من غيرهم من بقية شعراء الشمال الافريقى فى هذا العصر ؟ » (36) واتصلت المجلة بما يزيد عن 1239 صوتا وزعت على ثلاثين شاعرا كان الفائزون منهم ثلاثة هم بالترتيب :

---

(34) المرجع السابق : نفس المكان ٠

(35) راجع مجلة (الفكر) الاعداد : 4 ـ 5 ـ 6 ـ 7 ـ 8 ـ (سنة 16) 1971 ٠

(36) مجلة (العالم الادبى) ص (12) س (3) ع (16) 1932 ٠

1) عبد الرزاق كرباكة 173 صوتا ·

2) محمود بورقيبة 158 صوتا ·

3) الشيخ الطاهر القصار 151 صوتا (37) ·

وقد أثار هذا الاستفتاء سخط بعض الادباء واستنكارهم وكانت له ردود فعل عنيفة لعل ابرزها ردود محمـد البشـروش · وقبل ان نستعرض تلك الردود لنا ان نتبين أولا الاسباب التي دفعت البشروش الى استنكـار ذلـك الانتخاب ونقد أصحابه ·

ومن المؤكد ان البشروش كغيره من الادباء الشبان في ذلك العصر مثـل أبي القاسم الشابي ومحمد الحليوي ، قد تأثر بحركة جماعة (الديوان) (38) وبكتاب (الغربال) لميخائيل نعيمة (39) وبمعـارك العقـاد والـرافعي (40) وبمؤلفات جبران خليل جبران (41) مما فتح عقله على مفاهيم جـديدة للادب ومناهج حديثة للنقـد ·

---

(37) مجلة (العالم الادبي) ص (13) س (3) ع (20) 1932 ·

(38) هي أول حركة نقدية منظمة نشأت باجتماع خلان ثلاثة لهـم حظ من الثقافة العربية وهم : عباس محمود العقـاد ، وابـراهيم عبد القـادر المازني ، وعبد الرحمان شكري ، أصدروا سنة 1921 كتابا في النقـد والادب سموه (الديوان) وأبرز ما تضمنه (الديوان) نقـد شـوقي ونقد المنفلوطي والحملة على شكري ···

(39) كتاب (الغربال) مجموعة مقالات نقـدية صـدرت لنعيمـة في مجلـة « الفنون » منذ سنة 1913 · وقد ظهرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب سنة 1923 وكان يمثل العاصفة النقدية الثانية التي هبت في تاريـخ الادب العربي الحديث بعد كتاب الديوان ·

(40) دارت معارك أدبية عنيفة بين العقاد والرافعي حـول مفهـوم الشعـر وقضية تجديد اللغة العربية في نطاق القديم والحديث وبلغت أبعد حد من التعنت والتحامل والتجريح ··· وكان لها صدى في تونس طالـع جريدة (الزمان) 1932 ·

(41) نذكر بالخصوص (العواصف) و (الاجنحة المتكسرة) راجع محمد الحليوي « رسائل الشابي » ص (11) ·

كما ان البشروش ومعاصريه آلمتهم حال « الادب التونسى المريض » (42) فى ذلك الزمان ، وتضايقوا من بقاء « الجيف النتنة تتكلم وحدها » (43) وخافوا من أن « تحتل الاصنام الخشبية مكانا من الادب » (44) فطفقوا يجاهدون فى سبيل تكوين أدب تونسى حى جدير بالخلود لا ينتسب اليه الا الاحياء الذين يعرفون كيف ينفخون فى الشعب روح الحياة ويعرفون كيف يعلمونه محبة الحق والقوة والجمال (45) .

ومن هنا رأى أولئك الادباء الشبان أنه لم يحن الوقت الذى يكون لهم فيه ثلاثة شعراء كلهم من الطبقة الاولى (46) وأن الادب التونسى لم تتضح امامه بعد معالم النهضة الثقافية المرتجاة فكيف تعمد اذن مجلة محترمة مثل (العالم الادبى) الى القيام بـ « مهزلة » (47) ذلك الاستفتاء فى مثل تلك الظروف ؟

ولهذا استنكر أولئك الخلان الثلاثة (البشروش والشابى والحليوى) تلك « المهزلة » فى فصول نقدية طويلة تختلف قيمتها باختلاف مزاج اصحابها وثقافتهم ، وكانت فصول محمد البشروش هى البداية فى هذا الصدد وقد نشرها بجريدة (الزمان) سنة 1932 فى خمس حلقات متوالية (48) .

---

(42) محمد الحليوى : المرجع المذكور : رسالة الشابى الثانية عشر مؤرخة فى أفريل 1932 ص (63) .

(43) المصدر السابق : نفس المكان .

(44) المصدر السابق : نفس المكان .

(45) المصدر السابق : نفس المكان .

(46) المصدر السابق : رسالة من الحليوى الى الشابى مؤرخة فى جويلية 1932 ص (78) .

(47) المصدر السابق : ص (77) .

(48) محمد عبد الخالق البشروش :
(الاصنام الثلاثة) و (كرباكة فى الميزان) و (بورقيبة فى الميزان) و (القصار فى الميزان) و (الى هؤلاء السادة) جريدة (الزمان) الاعداد : 144 — 145 — 146 — 147 — 155 — سنة 1932 .

النقـد بجريـدة (الـزمـان) :

وقدمت جريدة (الزمان) لتلك الفصول النقدية بتمهيد هام تبين فيه أنها تفتح بفصول البشروش صفحة جديدة خاصة بالنقد وهى حائرة بين عاملين : عامل الميل الى تزكية الحوار بين الادباء للمساهمة فى تشييد النهضة الادبية الحديثة ، وعامل الخوف من ان ينحرف النقد عن غايته السليمـة فينقلب الى عواصف وثورات لعدم نضج الادباء فى هذا الميدان ...

ثم قالت : « ولكن ... من يضمن لنا ان لا تنقلب المناقشات الفكرية الى تعصبات وتهجمات شخصية ؟ وان لا يصبح تبادل النظريات الادبية والتعاون على الوصول الى الحقيقة العليا ، تبادلا لشتائم فردية وتعاونا على قتل الروح الادبية فى الشعب وتآمر (هكذا) عليها ؟

« أفهل نكون بعد ذلك مسؤولين ؟

« نريد ان يدرك كل أديب يراسلنا ان يتحرى جهده فى البعد عما عساه يعتبر تحديا شخصيا لا يورث الا الشحناء ... وها نحـن **نبدأ اليوم بنشر هذا المقال : ـ الأصنام الثلاثة ـ الذى حرره الاستاذ محمد عبد الخالق الذى نشرت له الصحافة التونسية كثيرا من البحوث الادبية القيمة** ونـحـن مستعدون لما يرد علينا من شعرائنا الثلاثة وغيرهم بشرط ان لا يخرج الكلام من الحدود التى شرحناها وفى ذلك خدمة للادب والادباء » (49) .

فهل سيكون الادباء اذن عند حسن ظن جـريدة (الزمـان) أم ستنقلب مساجلاتهم الى تهجمات وشتائم تسيء الى الروح النقدية ولا تخـدم قضايـا الادب ؟ هذا ما سنراه مع محمد البشروش .

1) الأصنام الثلاثة (50) :

يمثل هذا المقال توطئة من البشروش لنقد الشعراء الثلاثة الذين دعـاهم بالأصنام . وقد استهل هذه التوطئة باسلوب ساخر يستهزىء فيه على مجلة « العالم الادبى » وما أقدمت عليه من تنظيم مسابقة أسفرت عن فـوز ثـلاثة شعراء جمعهم الشعب التونسى فى عصر واحد ويوم واحد الامـر الـذى لم يتحقق عند شعوب اخرى فيقول :

---

(49) (الزمان) ص (2) س (4) ع (144) بتاريخ 5 ديسمبر 1932 .

(50) المصدر السابق : (الأصنام الثلاثة) نفس المكان .

« هيا بنا يا أخي القارىء · أليس لنا اليوم ثلاثة شعراء ؟ فبفضل مجلة « العالم الادبي » أصبحنا نرى في اليقظة ما لا نراه حتى في المنام فان هذا الشعب الصغير الذي يسمونه الشعب التونسي ، جمع من الشعراء في عصر ويوم واحد ما قل ان جمعته الامم والشعوب العظيمة في يوم من الايام فهذا دليل وهذا آية بالغة على عبقرية شبابنا وهذا فوز ونصر مبين ··· ولنرقص ونزمر ··· » (51) ·

ويتعجب البشروش كيف أمكن للتونسيين ان يطووا مراحل النمو الادبي بمثل تلك السرعة التي تمت بها نتيجة ذلك الاستفتاء فيتبـاهوا بشعرائهم الثلاثة أمام الامم الاخرى ! أليس من السخافة ان نفتخر نحن بكرباكة وبورقيبة والقصار كما (افتخر الالمان بجيتي وشيلر ، والطليان بدانتي وفرجيل ، والاغريق بسوفوكل وهومير ، والانجليز بشلي وشكسبير ، والفرنسيون بمسترال وبودلير ، والفرس بالشيرازي والخيام ، والسوريون بأبي العلاء وجبران ··· » (52) ·

ولا شك أن الركون الى مثل هذه المفاخرة محاولة عقيمة فلا يكون التونسيون ظالمين الى حد ان يرفعوا كرباكة وبورقيبة والقصار الى مصاف أولئك الادباء الغربيين والشرقيين على السواء !

وشعراؤنا حسب البشروش قاصرون عن ادراك مقام غيرهم من الادباء الاجانب ، ولهذا فهو يستغرب كيف يريد التونسيون خداع أنفسهم في محاولاتهم لتأكيد وجود شعراء عندهم ، وكيف تبلغ السخافة بالشعب الى ان تخدعه الترهات والصور المتحركة ويقدس الاصنام كأنها آلهة ! (53) ·

ثم يشرح صاحب المقال الظروف التي تمت فيها عملية الاستفتاء ويبين التصرفات التي لجأ اليها الشعراء الثلاثة في قيامهم بالدعاية لدى الاوساط الادبية للحصول على أكبر عدد ممكن من الاصوات (54) فيقول : « ان أولئك الأصنام المشعوذين ما تركوا متسعا لغير ألعابهم البهلوانية وأدوارهم المخجلة فقد فازوا في مسابقة ـ العالم الادبي ـ ليس لانهم في الحقيقة شعراء وانما قاموا بالدعاية لانفسهم كدعاية الاحزاب فطافوا بالعرائض وفعلوا كل ما لا

---

(51) المصدر السابق : نفس المكان ·

(52) المصدر السابق : نفس المكان ·

(53) المصدر السابق : نفس المكان ·

يستطيع ان يفعله الانسان ... » (55) وهكذا يطعن البشروش في صدق ذلك الاستفتاء ويشك في نزاهته ولا يرى البشروش حرجا في أن يصارح الشعب بالواقع ويصدع له بالحقيقة مهما كانت مرة غير عابىء بالردود التى تنجر عن موقفه هذا فيقول : « فليغضب علينا الغاضبون وليسخط علينا من ألفنا منهم النقمة على قولة الحق واننا لنعلم الطريق الذى نسير فيه ونعلم ما سيجره علينا من المتاعب واننا لنسلكه لاننا لا نريد ان نكون مسخرين لارضاء النفاق وارضاء المداجاة فخير لنا ان ندوس ابتسامات الكثيرين لنقول ما اختمر في نفوسنا وفكرته عقولنا من ان نقتنع بالصمت جبنا وخوفا من نعيق الناعقين ، وما نأمل من هذا الا خدمة الحقيقة والقضاء على الشعوذة والاكاذيب » (56) .

وينتهي البشروش الى بسط الطريقة التى سيتوخاها في « تحطيم الأصنام الثلاثة صنما بعد صنم » فيبين أنه لن يستعمل مقاييس ومكاييل في نقده ولن يتناول الحديث عن الاوزان والتفاعيل واللغة وقواعدها وكل ما سيقوم به من تقدير الشاعر وفهمه هو التساؤل عن نصيب نفسه من هذه الحياة ومدى صدقه في انتاجه (57) .

وهكذا اتضح لنا من خلال هذه (التوطئة) الظروف التى تمت فيها عملية الاستفتاء والأسباب التى دعت البشروش الى استنكارها وتحطيم الفائزين فيها . ولنا الآن ان نتبين مدى تطبيقه لها في نقده للاصنام الثلاثة .

ع. س. (يتبع)

---

(54) هذه التهمة أثبتتها مجلة (العالم الادبى) نفسها عندما أجابت قراءها بعد ان تهاطلت أجوبتهم عليها فقالت : « رأينا من المكاتيب بعض كتب لا عهد للادب والمسابقات الادبية بها حيث انها تذيل بعشرات الامضاءات . وهذا وان دل على مزيد من العناية من حضرات الذين يتكرمون بوقتهم لأخذ الامضاءات الا انه يفوت علينا الغاية الاساسية من الاستفتاء ، ويجعل التصويت أقرب للمجاملة منه لذوق القراء فانالقارىء الذى تعرض عليه قائمة ليمضيها لا يعطى في الحقيقة صوته حرا... » . المرجع المذكور ص (23) س (3) ع (19) سنة 1932 ــ صاحب البحث ــ

(55) الأصنام الثلاثة : المصدر المذكور . نفس المكان .

(56) الأصنام الثلاثة : المصدر المذكور . نفس المكان .

(57) المصدر السابق : نفس المكان .

«من مذكرات شاعر»

شعر : رياض المرزوقي

1 ـ يبكي من يبقى الحزن لديه على السطح
يبكي من لم يتذوق طعم الجرح !
جمعت قواى ، وذخرت دموعى
حتى يوم رجوعى
وبقيت وفى أعماقى العطشى منجم ملح !

2 ـ تجار الشعر
كقرية نمل داستها الأقدام
يسرى هذيانهم يسرى
كما تسعى فى الجسد المنخور الآلام :

3 ـ الحب ليس بهمس
الحب صرخة نفس
قد ضاع منا سنينا
بين الأسى والتأسى
الحب حارس سجن
الحب ضربة فأس

4 ـ عابوا على اننى أحب
وأن كل قد
يحملنى كموجة سحريه
يبعدنى عن شاطىء « القضيه »
لكنهم نسوا بأننى أخفى زوابع الغضب
من خلف كل خصر ، من خلف كل نهد
وأننى أخلصت فى الحب كما لم يخلصوا جميعا
وأن لى مثل شتائهم ربيعا ·

5 ـ كما حكوا بالأمس هم يحكون

ويخطبون ، يخطبون ، يخطبون
وإن أتاهم المظلوم
ينصبون مشنقه
ويمنحون للمحروم
ضربة بمطرقه !

6 ــ الصمت هو الهدف الأكبر !
لا أحلم إلا بالصمت ،
لكن الشعر كنار فى الزيت
يتفجر كبريتا أحمر
فيقوض أركان البيت !

د٠ م٠

◆ طه حسين يتحدث عن حافظ ابراهيم :

نشرت مجلة « المصور » المصرية حديثا أجراه مندوبها مؤخرا مع الدكتور طه حسين وتناول شؤونا وقضايا كثيـرة ، نقتطـف منـه ما يـلى :

ــ وماذا عن حافظ ابراهيم ٠٠٠ كشاعر وشخصية طريفة ٠٠٠ هل صاحبته ؟

ــ أنا اتصلت به ٠ حافظ أيضا كان متأثرا جدا بالشعر العربى القديم مثل شوقى ، وربما أكثر من شوقى ، انما كان ظريفـا وكان دائما يمزح ويضحك ٠ جاءنى مرة فى بيتى فى مصر الجديدة ، ومعه قصيدة نظمها فى مدح توفيق نسيم لاعادته الدستور ٠ قـال لى : « أنا كتبت قصيدة وأود أن أسمعك اياها » وبدأ يقرأ ، وحين انتهى قال : « ما رأيك ؟ ! » قلت « والله طيبة جدا » ٠ وهنا قال حافظ للحاضرين : « اشهدوا عليه ٠٠٠ عسى أن ينقدنى فى غده !٠٠ » ٠ تصور أتانى ومعه اثنان من الشهود !٠٠

الصهاريج

قصة ، بقلم : محمد صالح الجابري

الصّهاريج الثّلاثة هي أوّل ما يظهر من القرية ... نصبت على المرتفعات برؤوس مستديرة ضخمة من الصّفيح اللمّاع في شبه مثلّث ، تغطّيها عواصف الزّوابع الّتي تنطلق في فصل الخريف ، لكنّها تتعالى دوما ، وتتحرّر كلّما كانت الشّمس وضيئة .

الوافدون من الدّواوير وراء الجبل يستهدون للقرية بصهاريج الصّفيح ... والطيور العطشى الّتي تفد من أعالي الجبال لا تني محوّمة بأجنحتها تلوب حول رؤوس الصّهاريج ترتوي بالوهم من خرير المياه الّذي يصّاعد في مواسيرها .

في الشّتاء يغفل القوم الصّهاريج ، لكنّهم في الصّيف يزدادون تعلّقا بها ، يصحون في الصّباح على انقباض الحنفيات تقتّر قطراتها في أسطالهم ، فيرفعون أكفا ضارعة يستسقون ... ويتذكّرون أنّه الصّيف .

منذ عشرات السّنين ، عرفت القرية هذه الصّهاريج الثّلاثة : الأبناء لم يسألوا آباءهم في أمرها ... والآباء لم يسألوا الأجداد وتتعدّد الخرافات والأساطير عن مهندسين أغراب ضلّوا طريقهم في التّاريخ البعيد ، وهم يقومون بمسح جغرافي فوقعوا بين أيدى العشائر فأكرموهم . وأراد المهندسون أن يكافئوا هؤلاء فمكثوا بضعة أشهر بينهم وبنوا تلكم الصّهاريج التي استلفتت نظر العابرين بتلك الطّرق وأغرتهم بالاستقرار .

ومهما يكن فإنّ الّذي يتناقله القوم بتقدير بالغ هو الوصايا المتوارثه الّتي تحثّ جميعها على الحفاظ بكلّ الوسائل عن تلكم الصّهاريج ، بعد أن سدمت الآبار ... وشحّ ماء المطر ، وتبخّرت برك المياه في شعاب الجبـــال .

ومظاهر الوفاء والتكريم الّتي لاقتها الصّهاريج تندّ عن الحصر : تحتها كانت توقد النّيران ليلة بأكملها كلّ سنة ، وتنحر الجزور ، وتبسط قصاع الطعام . وفي المناسبات الجليلة تخرج العجائز بكوانين الفحم والمبـــاخر .

وبين العشائر جرت خصومات شتّى ، خربت ديار وعروش ، إلاّ أنّ هذه الخصومات لم تمتد بحال إلى الصّهاريج ، وأصيبت القرية بعديد الكوارث ... ومع شدّة ما كان يحصل فإنّ الصّهاريج ظلّت بمنأى عن الكوارث حتّى أنّ بعضهم لجّ في الاعتقاد بأنّ هناك قوى خفيّة تسهر على حماية الصّهاريج ...

الصّهاريج الثّلاثة ترفع اليوم رؤوسها في اكتئاب ، يخيّل لمن يدقّق النّظر في هيئتها أنّها تتأهّب للانطلاق نحو الفضاء ، فقد قلّ ماؤها واستطالت أعناقها وبدا عليها الهزال .

والقوم منذ أن حلّ فصل الصّيف وبدت الحنفيات دامعة شحيحة البذل ، أصبحت الصّهاريج شغلهم الشّاغل .

على المنابر كان الأئمّة يجأرون بالدّعاء أن يرفع المولى عليهم مخاوف ما يهدّدهم من العطش والرّجال أخذوا في التّوافد على عُمدة القرية ليدبّر الأمر ... وامتلأ الدّكان الوحيد الّذي يشتمل جزء

منه على مركز البريد بأولئك الّذين وضعوا آمالهم وراهنوا أنّهم بمجرّد أن يتّصلوا بالسّلطات العليا في العاصمة سوف لن تخيّب رجاءهم في إرسال من يتبيّن علّة نضوب الماء في فصل الصّيف .

وتتبدّد كلّ هذه الآمال ... لأنّ الحكومة لا تأبه لهم كعادتها ، ولأنّ صلوات الاستسقاء والدّعاء على المنابر لم يسفرا إلاّ عن المزيد من غيضان الماء .. والعطش .

الصّهاريج الثّلاثة تزيد الآن تباعدا وتنحل أعناقها بين يوم وآخر وأمسى النّاس ينتظرون اللّحظات الّتي يفتحون فيها أعينهم ليروا الكارثة الحقيقيّة .

كثر رواة الأحلام الّذين شاهدوا الصّهاريج تعرج إلى الفضاء .. وروى البعض أنّه رأى هذه الصّهاريج وقد أصبحت في حجم نبات الفقاع ، أقزاما صغيرة ضامرة رخوة فقدت لمعانها في الشّمس .

سجلوا كلّ هذه الرؤى في شكاية أمهرها العمدة بخاتمه ، ووجّهوها إلى رئيس الحكومة واصفين حالهم والكارثة المنتظرة وترقبوا الاجابة أسبوعا باكمله كانوا يسافرون خلاله كلّ يوم إلى البلدة المجاورة حيث مركز البريد يتطلّعون إلى ردّ .. فما وصل إليهم شيء ممّا أملوه .

بينهم وبين العطش لم يبق شيء، عين القرية الوحيدة تقف منهم ولأوّل مرّة هذا الموقف الغريب ، تحلّقوا حولها وتدافعوا بالمناكب كعادتهم ليفوزوا بالقطرات القليلة الّتي دأبت في الأيّام الأخيرة على التكرّم عليهم بها ... لكنّها ظلّت واجمة فاغرة الفم ..

قاسية الملامح . ولمح أحدهم دمعتين في عيني صبي على وشك أن تفلتا إلى الأرض فعرض كفّه ليعيدهما إلى محجريه ... الأمّهات اللاّتي كنّ يشاهدن الصّغار بحاجة إلى جرعة ماء يرضعن ما تبقّى من الحليب في أثدائهن ليقاسمن أطفال القرية المصّة الوحيدة ... الرّجال لم يذهبوا إلى أعمالهم .. سوق القرية امتلأت بهم زرافات، خرجوا إلى الجبل بالقرب والاسطال والمواعين يفتّشون عن برك المياه القديمة والينابيع الغائرة .

وفي المساء حين تأكّد بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّ الصّهاريج يابسة ، نادى منادي القرية ودقّت طبول الفزع .. وهرع من تبقّى من الرّجال والأطفال والنّساء .. خرجوا جميعا حفاة عراة وقد حملوا أواني المياه .. وسار على رأس القافلة العمدة وإمام المسجد يبتعدا بالنّاس عن القرية إلى الخلاء ، ويقضي الأهالي ليلتهم متضامنين .. حتّى إذا كان هناك بينهم من أضرّ العطش به ، فلا أقل من أن يسعف أو يموت على مشهد من الجميع ، فيتعلّم النّاس الصّبر على المكاره التّي سوف تزيد بينهم .

في اللّيلة الأولى نكبت القرية في ثلاثة من الرُّضّع ، وعاد بعض الرّجال من رحلتهم إلى الجبل منهكي القوى خائري العزائم ، يبست حلوقهم وقربهم وأرهقهم المشي والسّهر .

اقترح العمدة أن تهيأ المدافن بسرعة قبل أن يفقد النّاس القدرة على عمل أي شيء ، واقترح الامام أن تقتلع هذه الصّهاريج ويتبيّن ما إذا كانت ما تزال بعض القطرات عالقة بها . لكن أحدا لم يتحمّس لكلا الاقتراحين : فهم لا يريدون تصوّر الموت ويخشون

أن يخدشوا بشيء وصية آبائهم في النّظر إلى الصّهاريج نظرة إجلال وتقديس .

الصّهاريج الثّلاثة تشمخ الآن ، تطول أعناقها ، تسطع الشّمس حادّة عليها كالإبر . لقد أصبحت رؤوسها بعيدا عن متناول الأعين ... وفقدت القرية العشرات من أبنائها وجلس الإمام للموعظة، وجلس العمدة يلخّص في رسالة مطوّلة إلى السّلطات ما حلّ بمواطنيه . ولم يبق من الأفواج الّتي خرجت تبحث عن الماء إلاّ فوج واحد تعلّقت به آمال كلّ الّذين ما زالوا على قيد الحياة . إنّهم يعيشون الآن على وهْم أن يعود .

ولم يطل الانتظار طويلا إذ ما عتم أن عاد راعي القرية رافعا لحفته البيضاء في رأس عصاته يلوح من بعيد وكأنّما لينتشل القرية من وهدة اليأس . عرف النّاس صوته حين أخذ ينادي بأبناء القرية، وهبّوا مندفعين نحوه لكنّهم خذلوا حين رأوا أنّه لا يحمل لهم شيئا ، غير أنّه عرف كيف يعيد الثّقة إلى النّفوس بإعلانه أنّه عثر على مسرب يؤدّي إلى مغارة قديمة كانت كلّ شعاب الجبال المجاورة تصبّ فيها ، وأنّه طالما سقى منها غنمه .. وأنّ الفوج الّذي صاحبه إلى المغارة بدأ يجوس المسالك داخلها .

تبعه على الأثر كلّ الرّجال الّذين بقي فيهم رمق من جهد .. مشوا خلفه إلى أن وصلوا باب المغارة فاقتحمها الأوّل ثمّ الثّاني إلى أن دخل جميعهم وعاد الرّاعي مرّة أخرى ليقود وفدا آخر .

وفي اليوم الثّالث استفاق النّاس على المياه تتفجّر بعنف وتطير رؤوس الصّهاريج فبقيت أعناقها في شبه نافورات . كان الماء

يتدفّق منها وينزل من المرتفعات ليلتقي في شبه بحيرة عند عين القرية الوحيدة ثمّ يغور متدافعا من جديد .

خاف النّاس بادىء الأمر من فيضان متوقّع ، لكنّهم رأوا أنّ الأشياء تسير وفق نظام بديع ... الماء سرعان ما يتبدّد ويغور في الأرض والنّافورات دائمة التّدفق . شربوا من النّافورات الثّلاثة فتبيّن لهم أنّ مذاق كلّ نافورة يختلف عن الأخرى وأنّ طعم واحدة غازي والأخرى ماء قراح ، والثّالثة لها مذاق مشبع بالملوحة مع قدر من الحرارة .

بقي عليهم أن ينتظروا أفواج العائدين ليقيموا احتفالات خاصّة بهذه المناسبة . ومر اليومان الأوّل والثّاني .. وبدأ القلق في اليوم الثّالث يستولي على النّفوس . فالرّاعي الّذي يعرف المكان لم يعد ليدلّهم عليه ، والشّيوخ والأطفال أعجز من أن يستطيعوا تسلّق الجبال . ولمّا عيل الاصطبار قرّر النّسوة الخروج بأنفسهن إلى الشّعاب القريبة ، فقصدن الجبل ومشين طويلا في شعابه وكن يزغردن ليسمعن بعولهن الاشارات . الجبل صامد واهن الأصداء .. وأصوات النّافورات الشّديدة التّدفق طغت على كلّ صوت عداها . كانت كلّ مواقع الجبل تعيد أصداء الخرير لحنا متعدّد الطّبقات .

وعادت النّسوة يجررن خيبتهن وجلس الإمام يضرع كعادته ، أمّا العمدة فكتب إلى السّلطات العليا بالعاصمة الّتي لا ترد على مكاتيبه واصفا ما منّ به المولى على قريته من معجزات ، والنّفوس الكسيرة الّتي عكر صفوها غيبة الرّجال الّذين لم يعودوا بعد.

ولأوّل مرّة استجابت السّلطات لمكتوب العمدة ، وأرسل

رئيس الحكومة بعثة من المهندسين حملت إليه تقريرا عاجلا بالأمر ... قرّر على اثره أن يقف رئيس الحكومة بنفسه على غرابة هذا الوضع .

وكان يوم زيارته يوما مشهودا أمل فيه السكّان أن يكون يوم عودة أبناء القرية إلى أهليهم ، فرئيس الحكومة هو الّذي يملك السلطات الواسعة ليفعل ما يشاء ضمن حدود بلاده .. وأسفرت زيارته بالفعل عن أمرين : الأمر الأوّل ارسال دورية من رجال الأمن لتجوب الجبال ... وقد فعلت ذلك دونما طائل أمّا الأمر الثّاني فهو قرار الحكومة بأن تحال هذه القرية برمتها إلى ادارة السّياحة واجلاء السكّان عنها في أقرب الآجـال .

لم ينتظر الأمر الثّاني كي يدخل حيز التّنفيذ طويلا ، ذلك أنّ الجادلات والرّافعات كانت قد أطلّت منذ الفجر الموالي على القرية بخياشيمها العملاقة لتزيح طوابي الهندي وبيوت الطّين . وحمل السكّان أمتعتهم وتقدّم الموكب جمع من غلمان القرية وهم يرفعون على الأعمدة رؤوس الصّهاريج الّتي اطارها تفجّر الماء .

إنّ العمدة قرّر أن يبتني السكّان قرية جديدة بظاهر الجبل ، ترفع عليها تلكم الرّؤوس المقطوعة في شبه مثلّث ، علّ الرّجال الّذين اختفوا عن القرية منذ أمد يستهدون في عودتهم إليها برؤوس الصّهاريج .

م. ص. ج.

الوان جديدة :

اربعة مقاطع للحزن والرثاء

شعر : نور الدين صمود

— 1 —

يُؤلمُني أنْ أُبصرَ تمثالَ المرْمَرْ
يبكي في صمتِ الليْلِ البَاردْ
يَحْفرُ في قلبي آلامَهْ
أقوى من طعنةِ خنجر
أعمقَ ممّا يحفر في سمعي المِزْهَرْ
لما يسكبُ أنْغامَهْ

— 2 —

يضحك في أعماقي ذاك الماردِ
رغمَ الليلِ الباردْ
رغم المطر الهَامِي
يغسِلُ تمثال رُخامِ
رغم القطرات المُنْسَابَهْ
من عينيْ ذاك التِّمثالِ
تغسلُ آلامي
تغسل عيني ... من ألفِ خيالِ

— 3 —

دَحْرجْ قلبكَ في الطُّرُقاتْ
دحرجْه من المرتفعات

قلبُكَ يا هذا مَاتْ
ازْرعْ في قلبِ الموت الملعُونْ
ازرعْ فيه سكينْ
ازْرعْ في دربك زهرة ليمون .

— 4 —

هل أزْعَجَ سمعَكَ ذاكَ الصَّوْتْ
هل دَبَّ بأعصابِكَ بَرْدُ المَوْت
يَا ويحَ الحيِّ المسكين
مِن طعنة سكين
توِرثُ بَرْدَ الموت
يَا ويحَ الحُرِّ المسجُون
مِن بردْ السجنِ الملعُون
ألْعَنَ من بردِ الموت .

مكتبة عربية بالفرنسية :

★ من أنباء باريس أن دارا حديثة للنشر تحمل اسم « **سندباد** » قد شرعت في اصدار مجموعة من الكتب التي تهتم بقضايا العالم العربي المعاصر أو التي كتبت بأقلام عربية وهي بذلك تنوى تكوين « مكتبة عربية » معاصرة باللغة الفرنسية .

من باكورات هذا العمل ترجمة للقصة المعروفة « **موسم الهجرة الى الشمال** » للكاتب السوداني الطيب صالح ، ومجموعة من الفصول المنقولة عن الأنكليزية للمؤرخ أرنولد توينبي بعنوان «**افريقيا العربية ، إفريقيا السوداء**» وفي قائمة ما سيصدر طائفة أخرى من العناوين مثل « **أيلول الأسود** » لجيلبار موري ، و « **المغرب يبحث عن ثورة** » لجماعة من شباب المغرب ، و « **العرب** » لجاك بارك .

الـزنج

ديوان مسرحي

تأليف : عزالدين المدني

شخصيات مجلس ثورة الزنج :

يتركب مجلس ثورة الزنج من سبعة أعضاء وهم :

علي بن محمد : زعيم ثورة الزنج • هو رجل في الأربعين • وجهه كفلق الفجر • شعره فاحم ، منسرح على الأكتاف • لحيته سوداء دائرة حول عارضيه • نظرته ثاقبة ، واسعة • حركاته متزنة حازمة • ذو اريحية ، ودهاء •

خليل بن أبان : العضد الأيمن للزعيم • هو رجل أسمر ، طويل القامة ، معروق • يتحمل عبء عمره بجلد • سنه طلسم عند الناس • تقاسيم وجهه واضحة • في حركاته بعض التشنج • نظرته تمحى امام الزعيم • رأسه ينكس • ذو صبر حديد •

يحيى بن محمد : العضد الايسر للزعيم • هو كهل في زهاء الخمسين • مربوع القد • دائر الجوف • عريض الصدر • متين الاكتاف • قوي السواعد • أصلع • كبير الرأس • ثقيل الخطى • بطيء الكلام • ذو صمت رهيب •

ريحانة : شابة سمراء في طلاوة أول الليل • عيناها كوكبان سياران من ذوات الاذناب • عنبرية الجسد • ضامرة • البشرة • مليحة القامة • ملفوفة المحاسن • ضامرة • شعرها سائل حتى مفرق عجيزتها • حركاتها أنيقة

منسرحة • ذات بحة خفيفة فى صوتها • إنها زهرة ثورة الزنـج •

محمـد بن سلـم : من كبار اعضاء مجلس الثورة • كهـل ، لكن سمـات الشباب ما زالت راسبة فى قسمـات وجهـه • قصير القامة • نحيل الجسم • نحيف الاطراف • مزمن المرض• يستبد به الكلام ، فيلفظه دفعا ، دفقا ، زاخرا • قيل : بدأ حياته كاتبا فى أحد دواوين دولة بنى العباس ايام الواثق بالله • ذو نكتة مرة لاسعة ، وقهقهة هازئة •

سليمان بن جامع : آخر من انضم الى مجلس الثورة • سماه على بن محمد جنرال الجيش • هو شخص اسود فى سواد الزيتون • غليظ الحلقة • عنترى المنظر • دمث الخلـق • خبير بميادين القتال • ماهر فى اعداد خطة الحروب • هو رجل طاعة ، وتنفيذ ناجع سريع •

رفـيـــــــق : عضو شاب فى مجلس الثورة • رباه محمد بن سلم ، وتبناه • يناقش كثيرا • يطالع كثيرا • ينتقد كثيراً • شعر رأسه ، ولحيته ، وشاربه هائج ، مائج • شاعر فى خلواته • ذو خجل مستتـر • لم يشـارك فى حـرب التحرير انما هو وليد التحرير وعيا •

فـى الـركـح الأول

الفصل الأول : استعداد لبناء مدينة « المختارة »

(يدخل ممثلون سبعة حاملين أخشابا ، وأدوات البناء ، عليهم ثياب الشغل)

عـلى بـن محمـد : هاتوا الاخشاب •••

خليـل بن أبـان : هذا يوم الفرح قد حل •

عـلى بـن محمـد : احملوا الاكياس •••

يحيـى بن محمـد : هذا عهد البناء قد جاء وطل •

عـلى بـن محمـد : ضعوا المعاول ، والمطارق ••

سليمان بن جامع : بالأمس ، ضيعنا اعمارنا ،

علي بن محمد : جروا العربات ...

محمد بن سلم : واليوم ، نمارس وجودنا ،

علي بن محمد : فليقبل الصناع ، والعملة ، والفعلة ...

رفيق : وغدا ، مدينتنا ، نريدها فاضلة .

علي بن محمد : في هذا المكان ...

ريحانة : فيها من كل جنة زهرة خفاقة يانعة .

علي بن محمد : خليل ، أين أعمدة الحديد ؟

خليل بن أبان : فمتى كنا نبني بيوتنا بالحديد ؟ انما الحديد هو قوة سواعدنا .

علي بن محمد : يحيى ، أين طباق الزجاج ؟

يحيى بن محمد : سوف نصنعها من صحرائنا الصافية .

علي بن محمد : سليمان ...

سليمان بن جامع : حاضر !..

علي بن محمد : أين قناطر الاسمنت ؟

سليمان بن جامع : سوف نقطعها من مناجمنا .

علي بن محمد : محمد ، أين البركار ، ومسطر الزوايا ، وميزان البناء ، والمطمار ؟

محمد بن سلم : سنقدها كلها من افكارنا ، من واقعنا ، من تراثنا ... إننا اناس اصلاء ..

رفيق : فانشدوا معي اذن : غدا هو الغد الافضل !

ريحانة : وعلي هو مهدينا المنتظر !

يحيى بن محمد : وعيشنا هو العيش الارغد !

خليل بن أبان : ومصيرنا هو المصير الاكبر !

محمـد بن سلـم : ومجدنا هو المجد المخلد !

سليمان بن جامع : وفكرنا هو الفكر الاقوم !

(صمـت)

علي بـن محمـد : وبعد ؟ يا اعضاء مجلس الثورة ! وبعد ؟ ماذا نفعل ؟.. بعد هذا النشيد ، وبعد هذه الآمال ، وبعد أن حررنا الناس من الاستعباد والاستغلال ، وبعد ان انتصرنا ، فى معركة اولى على بنى العباس، ماذا نفعل ؟ أنتم تعلمون انه لا يكفى ان يتغنى الانسان بالحرية ليحققها .. فلزاما ان نطبقها لكن كيف ؟.. كيف ؟

سليمان بن جامع : نستأنف الحرب فلا هوادة بيننا وبينهم .. الحرب سجال . هدفنا الدانى اخذ البصرة معقل التجار ، والسماسرة ، واصحاب الاقطاع ..

علي بـن محمـد : استئناف الحرب فى نيتنا ، وعزمنا ، وارادتنا . لكننا نبحث عن واحة السلام فى خضم هذه الحروب حتى نبنى صرح الثورة ...

ريحـــانـــة : كانت زرقاء اليمامة تشاهد كل ما يسير ، ويدب ، ويزحف ، ويطير على بعد عشرين ميلا .. وها انى ابصر تجار البصرة الذين الهبوا اجسامنا بسياط السماسرة ، عذبونا فى السباخ ، جرعونا السويق ، يلوذون بالفرار تحت وقع سيوفنا ..

علي بـن محمـد : لكن اين السلاح ؟ سلاحنا ما زال شواقير ، وعصيا ، وبضعة سيوف ... ليس لنا مصانع .

سليمان بن جامع : نستلب السلاح من أعدائنا ..

علي بـن محمـد : أتذكر يا محمد بن سلم كيف بدأنا النضال ؟

محمـد بن سلـم : بدأناه بالسر ، والجهر ،

ريحـــانـــة : بالدعوة عقيب الدعوة .

يحيى بن محمـد : طرح الرقاع فى المساجد ،

محمد بن سلم : والسجن إثر السجن ، والنفى ، والتشريد ، ..

خليل بن أبان : كقطاع الطريق : كنا نهاجم قوافل التجار منذ عشر سنوات ..

على بن محمد : بثلاثة سيوف مفلولة ، وكثير من العصى ، وشىء كالسهام ..

رفيـــــــق : أنكم تذكرون تاريخ النضال ، كما لو كان ليلة من « ألف ليلة وليلة » !

على بن محمد : والله ، إنها كانت المعارك كأشد ما تكون .. تحملناها بكل ما كان لدينا من رباطة جأش ، وتفكير سديد ، وخداع .. معارك دائرة بين القوى والضعيف .. لكن الايمان كان وما يزال فى صدورنا !.

سليمان بن جامع : تحملناها بوحدة الصف كذلك ، بصفاء الضمير ، بنقاء الطوية ، بالاخلاص الحق .. الخير كان حافزنا .

رفيـــــــق : لكنكم ، تعيشون دائما على الذكريات .. إنى اجهلها !.

خليل بن أبان : (مخاطبا رفيقا) انظر : فى صفوفنا السودان ، والاحابيش ، وزط الآجام ، وأكراد العراق ، وأعراب البادية ، وصعاليك الجبل ، وبرابرة افريقية ، ومجوس الهند والسند ...

سليمان بن جامع : فما الذى ألف بين قلوبهم ؟ وما الذى جمع بين غرائزهم ؟.. هؤلاء الاخلاط ، وسقط المتاع ، وحجر الوادى .. ان يعيشوا احرارا ، كرماء ، أعزاء . ان يأكلوا اذا ما جاعوا ، أن يشربوا اذا ما عطشوا . ان يلبسوا اذا ما اخزاهم العراء .

يحيى بن محمد : والفضل يعود الى من وحد كلمتهم ، وأيقظ بصائرهم ، وكان نداؤه نسيما عليلا أنعش أرواحهم الحيرى .

رفيـــــــق : منجنيق واحد خير من ألف رجل من هؤلاء ...

سليمان بن جامع : لكن ، من هو الذى يقدر على معالجة منجنيق ؟ اصحابنا فى عراء من كل تجربة ..

محمد بن سلم : فليختلسوا سر القيادة من اعدائنا اذن ٠

رفيق : ولم لا نحارب جبهة واحدة ؟

سليمان بن جامع : نعم ! لم تعد الحرب في يومنا هذا كرا وفرا ٠ ونحن لسنا في السباسب ، ولا في السهول ، ولا في الوديان ، بل على الروابي ، وبين الآجام ، وفي الانهار ٠٠

علي بن محمد : فلتكن حربنا عليهم جبهات ، وقعة إثر وقعة ٠٠٠

رفيق : بل لتكن حرب جماعات ٠٠

ريحانة : وعصابات مبثوثة في الأدغال ، والاحراش ، متربصة كالتماسيح المتناعسة على ضفاف المستنقعات ، مترصدة كالنسور العانسة فوق شامخ الربوات ٠

سليمان بن جامع : نريدها حرب إنهاك !

خليل بن ابان : حرب استنزاف !

محمد بن سلم : حرب انتهاك !

يحيى بن محمد : حرب استنفاد !

ريحانة : حرب استهلاك ، وهلاك !

علي بن محمد : (مقاطعا) إياكم والشعر ! إنه اخطر من الافيون !٠٠

رفيق : ألم تقل يا علي : إن الحرب ليست بمشكلة ؟٠٠

علي بن محمد : بل المعضلة هي السلم ٠ السلم هي المعضلة ٠ أما الحرب ، فتوا نستأنفها توا !٠٠ (مخاطبا سليمان بن جامع) سليمان ، انطلق ٠

سليمان بن جامع : لبيك يا علي !

علي بن محمد : خذ معك عشرين ألف مقاتل ٠ وسر الى البصرة ٠ وافتحها ٠ وليساعدك رفيق ٠

رفيق : انما انا كاتب المجلس ٠٠٠

علي بن محمد : نريد ان تغمس يديك في الدماء حتى تعرف معنى النضال ...

ريحانة : انا احذق لغة السودان ، ولهجة الاحابيش ، ولسان البرابرة ، واترجم عن الاكراد ..

علي بن محمد : نريد ان تمضي مساعدا لسليمان بن جامع لانك تثقل على اعضاء المجلس بتساؤلاتك .

يحيى بن محمد : دعه يا علي .. فهو اصلح للمجلس ...

محمد بن سلم : اتركه . فاذا كان الشباب مطمئنا مثلنا لا يحيره أمر ، فسحقا له .. اني ربيته على السؤال : ان يسأل ، أن يناقش ، أن يفكر ، أن يبحث .. انما الحرج أن يخاف المسؤول من السؤال .

علي بن محمد : امض سليمان . وخذ هذه الراية (يعطيه راية حمراء عليها شعار اسود في صورة عنقاء) وماذا ستقول للمستضعفين في البصرة ؟ وبما ستبشرهم ؟

سليمان بن جامع وبقية اعضاء المجلس : ما قاله الله تعالى في كتابه العزيز : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

علي بن محمد : امض سليمان ! ولا تنته من البصرة حتى تقتل التجار ، وتصلب السماسرة ، وتحرق النخاسين ، وتحرر العبيد ، وترجع اموال المسلمين ومتاعهم الى بيت المال .

سليمان بن جامع : لبيك يا علي ! يا زعيم مجلس الثورة أنا لها ! (يركب جوادا ، ويحمل الراية الحمراء) اعدكم بتحرير العبيد ، اعدكم بمحق التجار ، والسماسرة ، والنخاسين ، اعدكم ..

(يخرج . نفخ مزامير دق طبول ايذانا باندلاع الحرب)

لحظة صمت . تسمع ضجة واحدة : (الله أكبر) :

علي بن محمد : (بعد برهة صمت) قلت لكم : الحرب ليست بمشكلة سوف ننتصر . سوف ناخذ البصرة ، وبعدها نستولى على الكوفة ، ومن ثم نهدد بغداد ، وسامرا .. (فجأة) انما نحن نريد ان نبنى صرح الثورة . فماذا نفعل ؟

محمد بن سلم : ظنى انك تطرح قضية البناء قبل الاوان .. فنحن لم ننته بعد من الحرب ...

علي بن محمد : الحرب في يد سليمان بن جامع ..

يحيى بن محمد : أرى أن نتمهل قليلا ، وأن نشرع فى البناء بعد أخذ البصرة .

علي بن محمد : البصرة سوف تكون تحت يد سليمان بن جامع .

خليل بن أبان : اعتقد ان اموال التجار بالبصرة ستساعدنا على شراء الآلات ، والاسمنت ، والحديد ، والزجاج ..

علي بن محمد : اموال التجار سوف تكون فى قبضة سليمان بن جامع ، فهى لا تضيع ، ولا تبور ، ولا تذوب ..

محمد بن سلم : انك لن تقدر على الدنيا فى وقعة واحدة .. والثورة لا تعنى ان تحل كل المعضلات حلا سحريا .

علي بن محمد : اختلطت على رؤيتك الاحداث .. فانت لا تميز بين السراب والواقع . فافتح باب المجلس ، وانصت : (صياح ، صراخ ، أنين يصاعد : نصن جياع ، نحن عطاش) (مستأنفا) شعب بأسره يتألم من الجوع . فايجاد الخبز كل يوم هو ضرب من البناء ، وايجاد الشراب كل يوم هو اسهام فى البناء ، وايجاد اللباس كل يوم هو دعم للبناء .

محمد بن سلم : الأهم على المهم ! الاهم هو الحرب . المهم هو السلم والبناء .

علي بن محمد : أريد أن نتحصن ، فلا ضير ان نشن الحرب ، وان نبنى

في الاثناء ، ومعا ، وفي وقت واحد نستولى على الامصار ، ونخرب مدائن بني العباس ... يجب ان نبنى .. يد تحارب ، والاخرى تشيد .

محمد بن سلم : هذا يسمى تشتيتا لجهودنا بينما الحال يقضى الاستقطاب . هناك وقت للحرب ، وهناك وقت للسلم . والحرب وباء ، تنتشر كالظلام ، كالموت ، فتأتى على كل ما بنيناه ...

خليل بن أبان : لنا خمسمائة ألف مقاتل ...

محمد بن سلم : بل قل لنا خمسمائة ألف رجل وامرأة وطفل . وفيهم المريض المزمن ، ومن بينهم الشيخ الضعيف الفانى ، وعلى كواهلنا جميعا مئات بل آلاف من الصبيان ..

رفيــــــق : وكلهم يتألمون من رداءة الطعام ، وقلته ..

محمد بن سلم : وكيف لك ان تبنى المدينة بجيش من الشحاذين ، والجائعين ؟

على بن محمد : تفعل ماذا اذن ؟

ريحــــانة : لناخذ من كل امرأة مصوغها .

محمد بن سلم : أرأيتم عند احداهن خيطا من الفضة ؟ انك تحلمين بالذهب ، والجواهر ، والمرجان يا ريحانة .

خليل بن أبان : مثلا .. نعقد حلفا مع قرامطة البحرين . فلهم الجوهر ، ولهم المرجان . ثورتهم غنية . وبيت مالهم متخم . وصناعتهم الغوص فى اعماق الخليج لاصطياد اعراف المرجان .. وانتم تعرفون ان الخليفة يخشى صولاتهم ، ويرتشى قوادهم . على انهم يتقدمون بخطى ثابتة نحو الشام شمالا ، وفارس شرقا ، ومصر غربا ، وعمان جنوبا . فماذا تقول لرسولهم الذى وقف على باب المجلس منذ أيام ؟.

على بن محمد : القرامطة .. (يضحك) وماذا يصنعون بالبحرين ؟

رفيـــــــق : انهم ثوار مثلنا ...

علي بن محمد : انهم يعيشون على مذهب غريب ، هجين ، مستورد ، يدعو الى المساواة في كل شيء حتى في النساء !

ريحـــانـــة : استوردوه من اذربيجان او من وراء الجبل حيث لا يعرف الرجل امرأته حلالا او حراما ، لا يعرف هل هي أخته ، أم ابنته ، أم أمه !.. نحن ايضا نقول بالمساواة ، وننادي بها ، لكن بين مختلف اجناس الشعوب ، والقبائل ، والامم . فلا عنصرية ، ولا شعوبية ، ولا قومية . ونحن ايضا نقول بالحرية ، وننفي كل عنجهية طبقية . فلا سيد ولا مسود ، ولا ملك وراع . اما مساواة القرامطة فهي زيف وتوفيق ، وتلفيق ، وترقيع ...

رفيـــــــق : اني أعترض ! احتج ! لا يغرنكم ما يتقاذفه الناس من الاقاويل والاراجيف . مذهب مستورد ! بئس هذا الكلام !.. (مخاطبا محمد بن سالم) ألم يقع بين يديك كتاب من كتبهم ؟

محمد بن سلم : هم أصحاب عقيدة ، وشريعة ، ونظر ، واشتراك في كل ما ملكت ايديهم ...

علي بن محمد : خل عنك الاساطير !

ريحـــانـــة : اعترف . يا ابن سلم بانها اوهام !...

محمد بن سلم : اني اشهد بما قرأت ...

علي بن محمد : (مقاطعا) اخطأت القراءة ، وزيفت التأويل ، وزغت عن القصد ...

محمد بن سلم : اشتغلت في ديوان البريد في دولة بني العباس ، وقرأت على علماء الكوفة كتاب الحيوان ، وعلى علماء البصرة كتابي الحيل والاصنام ، وعلى علماء بغداد ديوان السليك بن السلكة فما حرفت لفظا ، ولا لحنت . وأجازوني ...

علي بن محمد : قلت لكم : مذهبهم غير أصيل ، مستورد ، غريب ،

هجين . كفى !
(مخاطبا رفيقا) فاعتراضك غير مقبول ، الزم مكانك !

رفيـــــــق : فمتى كنت تستبد بالرأى ؟ وما معنى مذهبي مستورد ؟ وما معنى مذهب غير أصيل ؟ انا لم افهم شيئا من كلامك كأنك من الباطنية او من اصحاب الكلام ! هل تستطيع انت ان تحل مشكلات الحرب والسلم كلها بمذهب المساواة فقط ؟

عـلى بـن محمـد : المساواة هي قاعدة مذهبنا .

رفيـــــــق : هل تستطيع بالمساواة ان تطعم الجائعين ، ان تبنى مدينة « المختارة » ؟ ... اذن لنقل ان لك مفتاحا سحريا تفتح به كل المعضلات .

محمـد بن سلـم : والنبي عليه السلام قد قال : الحكمة ضالة المسلم ..

عـلى بـن محمـد : (مقاطعا وقاطعا حادا) مستورد معناه : ما لا ينطبق على واقعنا ، وما لا يستجيب لرغائبنا .

رفيـــــــق : حمدان قرمط واشياعه هم علماء . والعلم لا يزل ، ولا يزيغ ، ولا يغلط ، ولا يعرف للاهواء بابا .. ونحن نريد ان تكون ثورتنا علمانية عالمة !

محمـد بن سلـم : هكذا سطرت كتب القرامطة .

يحيـى بن محمـد : لكن شتان ما بين الكتب والحقيقة ...

خليـل بن أبـان : ماذا نقول لرسولهم اذن ؟

عـلى بـن محمـد : والخلاف الذى نجم بينهم ، وكسر وحدتهم ؟ فاحدهم معتصم بالبحرين ، وثانيهم تائه في الحجاز ، وثالثهم يضطرب في بادية الشام . وكلاهم يقول : إنه الثائر الاوحد ، وكلاهم يقول عن صاحبه انه الزائغ الكافر الملحد ...

يحيـى بن محمـد : يا ابن سلم ، فمن نصدق ؟ ومع من نتحالف ؟

عـلى بـن محمـد : (متنبئا جهما) لن يبقى أثر لثورة حمدان قرمط . كما

ذهبت ريح ثورات أبى ذر ، وبابك ، وغيلان الدمشقى ، وصاحب الحمار ...

رفيــــــق : اسمع يا ابن سلم : كانه ينطق باسم القدر !

محمـد بن سلـم : ألا ان القدر قد حددنا له اجله (يقهقـه) أليس كـذلك يا على ؟

يحيـى بن محمـد : لنحسم النزاع . خليل ! قل لرسول القرامطة كلاما عاما نؤيدهم به ، ونبارك به مسعاهم . لكن ، لا تظهر فيـه عداءنا لهم (يخرج خليل بن أبان ثم يعود بعد لحظات) .

علـى بـن محمـد : ربحانة .. مالك صامتة كنت اترقب منك التأييد .

ريحـــانـــة : حبيبى على (يتخاليان فى جهة من الركـح) لو تكلمت لزادت النار لهبـا وسعيـرا . انـى اخشى على اعضاء المجلس التفرقة . اضحى بحرية رأيى فى سبيل وحدة صفنا ، وجمع كلمتنا ...

علـى بـن محمـد : كذا انت دائما يا زهرة الزنج . وكذلك كنت انا . فى صباى ، واول شبـابى ... اخفـى آرائـى ، واكتـم عقيدتى . لقد طوفت طولا وعرضا فى بلاد البحرين ، وتجـولت فى الاحسـاء واليمـامة ، واقمت بمسقط ، وجست فى عمان . فظفرت بك على شطآن الخليج العربى تجمعين عراجين المرجان .

ريحـــانـــة : فرحنا الى الحج ..

علـى بـن محمـد : نقطع الصحارى ، والبرارى ، والقفار .. الى الحج !

ريحـــانـــة : واقمنا الدعاة فى هذه الامصار .. فى الحج !

علـى بـن محمـد : نمشى الليل والنهار ، والشهر .. الى الحج !

ريحـــانـــة : ولهجة دعاتنا تنتشر .. فى الحج !

علـى بـن محمـد : والعيون تطاردنا ... الى الحج !

ريحـــانـــة : والقينا عصا الترحال فى الاشهر الحرم امام ستائر الكعبة ، وصرخنا معا :

علی بن محمد : ان نقلب الدنيا على الظالمين !

ريحـــانـــة : ان نكرم بنى الانسان اجمعين !

علی بن محمد : لكنى عرفت فى هذه البلاد خيانة الاخ لاخيه ، وايقاع الولد بوالده ، وغدر الجار لجاره · لقد قضى على ثورتى ببلاد البحرين فى المهد !··

ريحـــانـــة : لقد ذهب دور الستر ، وجاء دور الجهر ·· وكان حجنا حقا ، وانكشف الايمان ، وقامت الدعوة ···

استطراد :

(يدخل سبعة من الاشخاص ملتفعين فى جلابيب حمراء ، على رؤوسهم عمائم خضراء على وجوههم عصائب سوداء · الليل دائر الآفاق ، منقلب على هاماتهم بلا نجم ، ولا ضياء · يمشون مشية خشوع ، وثبات ، ومضاء · حركاتهم منحوتة شماء · اشاراتهم عريضة خيلاء · أعينهم واسعة حوراء · وحدتهم صماء· شعارهم عنقاء · طقوسهم من خفايا الغيب ، واسرار السماء · حتى يتخيل الناظر انهم إخوان الصفاء وخلان الوفاء ·

* فى يمين اولهم قنديل راقص السناء ·
* تحت ابط ثانيهم كتاب الحكمة والحكماء ·
* حول ذراع ثالثهم مسبحة عنبر حباتها التسع والتسعون سوداء ·
* من احزمة رابعهم ، وخامسهم ، وسادسهم تتدلى سيوف معقوفة من نجران وصنعاء ·
* فى عينى سابعهم يتألق بريق الرجاء ، فى صدره يختلج النداء ، فى فؤاده تكمن الدعوة ، ويفور الدعاء ·

(يتخلى السابع عن الجمع ، ويظل واقفا فى قلب الركح ، شاخصا لا يتحرك فى حين ان الستة الباقين يطوفون حول السابع مثنى وثلاث · ثم يجلس الواحد تلو

الآخر ، وكأن كل واحد منهم قد اخذ مكانه المعهود) ٠ عندئذ يوضع القنديل ، ويفتح الكتاب ، وتلقى المسبحة ، وتطرح السيوف وتتمتم الشفاه ٠ وفى النهاية ، يجلس السابع فى صدر المجلس الذى يكون فى شكل هلال ٠

(أضواء خافتة ٠ ضمت وسكون) ٠

السابع : سلامساى ! (يشير بحركة الى انعقاد المجلس) ٠

الأول : (حامل القنديل) سلامساى ! أجوم مزداداغ !

الثانى : (صاحب الكتاب) سلامساى ! شنبنار مجلس زنج !

الثالث : (صاحب المسبحة) سلامساى ! دليل مجلس زنج !

السابع : كلمان تلهاب دش راقوز أسرار مجلس زنج !

الثانى : (يشير بحركة من رأسه : نعم ثم يقرأ الكتاب كأن به قائمة اسماء اعضاء المجلس) نماجير ٠٠٠

السابع : أهورطا !

الثانى : بزاى ٠٠٠

الأول : أهورطا !

الثانى : شزار ٠٠٠

الثالث : أهورطا !

الثانى : أشباخ ٠٠٠

الرابع : أهورطا !

الثانى : دلهوق ٠٠٠

الخامس : أهورطا !

الثانى : ريحانة ٠٠٠

السادس : (ذو صوت نسائى) أهورطا ! سلامساى ثورة مجلس زنج !

السابع : نوقة أربأى حديث إخواننا الاخيار الفضلاء !

الأول : (صاحب القنديل) جاء عهد النور والجهر ،

الثاني : (صاحب الكتاب) وانقضى عهد الكتمان والستر ،

الثالث : (صاحب المسبحة) فطوبى لاهل الثورة ،

الرابع : (صاحب السيف) اذ تحققت الدعوة ،

الخامس : (صاحب السيف) وعمت الفرحة ،

السادس : (صاحب السيف وذو الصوت النسائى) فانزعوا اللثام ٠٠٠

السابع : واخرجوا من السباخ ، والادغال ، والآجام (ينزع كل واحد منهم لثامه) ٠

ثم العودة الى اصل المشهد : (بعد : جاء دور الجهر) ٠

....

ريحانة : لقد ذهب دور الستر وجاء دور الجهر ٠٠٠ وكان حجنا حقا ، وانكشف الايمان ، وقامت الدعوة ٠٠

خليل بن ابان : ولم لا نحتمى بالخليفة الفاطمى ؟ وبينه وبيننا ٠٠

بقية أعضاء المجلس : (باندهاش واستنكار) الخليفة الفاطمى ؟

خليل بن ابان : ولم لا ؟ فعدوه هو عدونا ٠٠ أليس كذلك ؟

بقية أعضاء المجلس : ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

خليل بن ابان : طيب ! اسحب كلمتى اعتذر عن ٠٠ اذا انتم لا ترغبون فى ذلك ، فعلينا ان نطلب العون من يعقوب بن الليث الصفار ٠٠٠

ريحانة : او تريد ان ترجع بنا الى الاستعباد والاستغلال ؟

خليل بن أبان : انى فكرت ٠٠٠

محمد بن سلم : سيدى ومولاى خليل بن أبان يفكر ! وفيما يفكر ؟ فى التعاون مع يعقوب بن الليث الصفار (يضحك بمرارة)٠

رفيق : التعاون لا يكون الا مع اشباهنا ، مع الذين طهر الله قلوبهم من الظلم ، ونقى طويتهم من الفساد ٠٠

يحيى بن محمد : مالك تترامى على الملوك ؟ انا لنا كرامة ، وانفة ، ومروءة ٠٠٠

محمد بن سلم : يا ناس كيف يجتمع الجوع والكرامة ؟ سبحان الله !

يحيى بن محمد : (مخاطبا محمد بن سلم) تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها٠

محمد بن سلم : الجوع كافر ٠ الجوع هو فقدان الكرامة ٠

يحيى بن محمد : (مخاطبا خليل بن أبان) فمرة تريد موالاة الخليفة الفاطمى ، واخرى ترغب فى التحامى بيعقوب بن الليث الصفار ٠٠ وثالثة ٠٠

رفيق : (مقاطعا) نحن لا نريد المشرق ولا نريد المغرب ٠ نحن الزنج ٠ نحن لا ننحاز ٠

يحيى بن محمد : (مستأنفا) أتحب أن نتحالف مع بنى أمية فى الاندلس؟

ريحانة : هل صحيح : ان للخليفة الفاطمى ألف جارية ، وألف غلام ، وألف خصى ؟

رفيق : بل الصحيح : ان له افريقية مستعمرة يمتص اموال اهاليها ٠٠٠

محمد بن سلم : امران لا يتناقضان : استعمار الامصار وامتلاك النساء ٠٠٠ استعباد الرجال واستغلال اموالهم ٠٠٠ طغيان الملك فى ملكه وجور الوالد فى بيته ٠٠ وهلم جرا ٠٠ والعصا من العصية ٠٠

على بن محمد : نعرف أنك قرأت جمهورية افلاطون ! دعنا من التهويسات الفلسفية ٠٠ بل قولوا كيف نسوى هذه الازمة ٠

رفيق : تقصد الحرب أم السلم ؟

على بن محمد : أن نبنى صرح الثورة ، أن نشيد هذه المدينة ٠٠

يحيى بن محمد : نحن لم نتحدث بعد فى أمر بيع الملح واحياء السباخ ٠٠٠

خليـل بن أبـان : انه متراكم كالجبال فى السباخ · فكيف نبيعه ؟ لقد قطع بنو العباس عنا طرق القوافل فى البر ، وضربوا علينا الحصار فى البحر امام ميناء البصرة · لـو تحالفنـا مع القرامطة لاستطعنا ان نبيع ملحنا اليهم ··

عـلى بـن محمـد : (غاضبا) عدنا والعود احمد الى القرامطة ···

خليـل بن أبـان : (كالمعتذر) انهم اغنياء ، ولهم عملة صعبة ··

ريحـــانـــة : (مقاطعة) عملتهم زائفة ، دانقهم زائف ، حتى دينارهم زائف ، لا يقبله أحد ·· وبعد ، هم يتعاملون بالصكوك مع اصحاب رؤوس الاموال ، والتناء ، وأمراء البحر ، وقراصنة الصين ··

خليـل بن أبـان : هل يعنى ذلك انهم منحازون للدولة الفاطمية ؟···

رفـيـــــق : انت لا تفهم شيئا ·· جسمك جسم فيل ، ورأسك رأس عصفور ··

محمـد بن سلـم : (يضحك وتأخذه بحة) ·

يحيـى بن محمـد : يجب ان نجد حلا لتسويق الملح ·· لان ذلك هو مخرجنا الوحيد ···

ريحـــانـــة : (مقاطعة) دعنا من امر الملح ··

عـلى بـن محمـد : دعنا منه ! أى نعم ! فهو لا يبور ، ولا يتعفن · ولنبحث فى اطعام الناس ، واسكانهم ··

محمـد بن سلـم : بمن ستشيد اسوار مدينة « المختارة » ؟

رفـيـــــق : هل لك مهندسون ؟

يحيـى بن محمـد : من سيبنى دورها ، واسواقها ، ومساجدها ، وقصرها ، ودواوينها ، وابراجها ؟ من ؟

رفـيـــــق : هل لك معماريون ؟

خليـل بن أبـان : من سيمد جسورها ؟ من سيعبد دروبها ؟

رفـيـــــق : هل لك قواسون وفنيون ؟

محمد بن سلم : كيف سنبنى هذه المدينة ؟ عباسية او أندلسية ؟ فاطمية أو رومية ؟ صينية أو فرعونية ؟

رفيق : أم نأخذ من كل شيء بطرف ؟ فنوفق ، ونرقع ، ونفتق ، ونرتق ، ونلفق ؟٠٠ ستكون مدينتنا مجنونة !

خليل بن أبان : واذا ما استطعنا ان نقيم دعائمها ، فمن سيعلم اطفالنا القرآن ؟

يحيى بن محمد : ومن سيدرس شبابنا العلم والمعرفة ؟

محمد بن سلم : ومن سيعالج مرضانا ؟

يحيى بن محمد : ومن سيقف على اسواقها ؟

رفيق : ومن سيتولى امارة سفنها ؟

محمد بن سلم : ومن سيكون قاضيها ؟

خليل بن أبان : ومن سيكون رئيس شرطتها ؟

محمد بن سلم : ومن سيدير دواوينها ؟

رفيق : ومن سيشرف على ضرب سكتها ؟

كافة الاعضاء باستثناء على وريحانة : من ؟٠٠٠

يحيى بن محمد : أن الذين نحارب فى سبيل تحريرهم هم جهال ! كلهم جهال ! مطلقا جهال !

خليل بن أبان : لا يعرفون الا رفع الاثقال ٠٠٠

محمد بن سلم : لا يعرفون الا حفر الخنادق ، وردم الخنادق ٠٠٠

رفيق : لا يعرفون الا سوق الجمال ٠٠٠

ريحانة : لا يعرفون الا انجاب الاطفال !٠٠

على بن محمد : شعب جاهل ! جاهل ! أرأيتم ، ان الحرب أيسر علينا من بناء المدينة ؟

* * *

البقية فى الأعداد القادمة

ع٠ م٠

« تحية وفاء لأصحاب الوفاء »

شعر : محمد الشعبوني (*)

أخلصتُ للفنّ إخْلاصِي لمعتقَدِي   وذبتُ في بلدِي شوقا إلى بلدي
وما تردّدت يوما أن أكون له   شعرا يردّده قلبي إلى الأبَدِ
(وحيُ الضّمِير) أبى إلاّ الوفاء له   إلاّ .الوفاء لقلب جدّ متّقدِ
من خفقة الرّوح قد سوّيت لحمته   شعرا يُغنّيه صوت الدّهر يوم غَدِ
يا إخوة قد بلوا خِلاّ على قَدَرٍ   وبايعوه على الإيمانِ والرّشَدِ
يا إخوة قَد تَلَوْا في الحبّ سورته   وأخلصوا العهد في عطفٍ ومتّحد
لأنتُمُ الهالةُ الغرّاءُ تَجْمعنَا   وأنتُمُ الرّوحُ رُوحُ الرّوح للجَسَدِ
جئتمْ وفي القلب أشْواق لصاحبكم   تؤكّدون لهُ ما كان منْ أمَدِ
كَرّمْتُمُ الأدَبَ البنّاءَ في رجلٍ   صَانَ العهودَ ولم يبخلْ على أحد
في حبّ تونس قد سارت قصائده   تحيي شعور الوفا تَحْيا على مدَدِ
وفي صفاقسَ كم غنّى بصحبتكم   لحن الوفاء إلى الأهلين والولدِ
وكمْ شَدَا بِنَشيدِ الحبّ بينكمُ   حول الرّياض وغصنُ الياسمين ندِي
وكمْ تَغَنّى مَعَ الأيامِ ملحمة   يهفو إليها من الأحبابِ كلّ صَدِي

* « .. ألح عليّ كثير من إخواني أن أنشر بمجلة الفكر النيرة نص القصيد الذي حييت به رجال الفكر والأدب والصحافة بمناسبة احتفائهم بظهور ديواني « وحي الضمير » ، وكنت وعدت هؤلاء الأصدقاء بأن ألبي رغبتهم ؛ والكلمة الآن الى مجلة الفكر، وهي التى ستتحمل عني تبليغ هذه الرسالة الأدبية الى كل منهم .. »

الشّعرُ عندي هذا الكون أمنحه … حبًّا كبيرا نما في القلب والكبِدِ
ماذا أقول لكم والودّ يغمرني … وخالص العطف يا أهل الوفا سنَدِي
إنّي شعرت بعطف زادني أملا … وأنتُمُ ههنا أهلي ومعتضدي
وليس إلاّ الوفا للحرف يجمعنا … وليس إلاّ الوفا لله والبلدِ
عهدا عليّ سأبقى دائما أبدا … للشّعب أخدمه أمضي يدًا ليدِ
وأخلد الشّعر ما للشّعر أنشده … في حبّ تونس شدو الطّائر الغرد
وهي المحبّةُ هذا الشّعرُ صوّرها … بِدْعا من الفنّ في أثوابه الجُدُدِ
فإن رأيتُمُ ما فيها ما يؤاخذها … فالأجرُ أجران أو أجرٌ لمجتهدِ
وهي التّحيّة لا أبغِي بها بدلا … يصوغها الشّعر أشواقا إلى الأبدِ
لَمْ أبْقِ منها لِنَفْسِي إنّها لكم … ولم أجدْ غيرَها يُهْدَى ولمْ أجِدِ
تحيّة القلب للفنّان أرفعها … ولم أزدها سوى حبّي ولم أزِدِ

م. ش.

النشرة التربوية

للتعليم الابتدائي والتعليم الثانوي

ملتقى أقلام المربين

موعدها معهم كل شهر

الامير الشاعر

تميم بن المعز الصنهاجي

بقلم : علي دب

أصح وأعلى ما سمعنا عن الندى   عن الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا   عن البحر عن كف الأمير تميم

هذا المقطع من قصيدة لابن رشيق مدح بها «تميم» بن المعز الصنهاجي (*).

وان قبلنا هذه الصفات بتحفظ، وحذرنا من تزيدات الشعراء ذات النزعات المادية والدوافع التكسبية ، فان التاريخ ـ والتاريخ أنصف حكم ـ يؤكد لنا كرم تميم وعطفه على الادباء والشعراء في عصره ، وقد شاركهم في الهواية ونازعهم في مكابدة مهنة الادب ، وان امتاز عليهم بالترف المادي وربما الفني أيضا ، فهذا ابن خلكان يثبت ان تميما « كان يجيز الجوائز السنية ويعطى العطاء الجزيل (1) ».

عصر الشاعر :

يمتد العصر الصنهاجي من « 973 الى 1058 م » ويعد من أزهى عصور القيروان وارسخها قدما في السياسة والادب ، اذ لم تنحصر النهضة الادبية في عاصمة الدولة وانما شملت مدينة المهدية العاصمة الثانية وانتقلت الى مدن القطر الهامة مثل : نفصة وصفاقس وقابس وباجة وتونس (2) .

(*) تميم بن المعز الصنهاجي هو غير تميم بن المعز الفاطمي فكلاهما شاعر وأمير غير ان الاول عاش في القيروان والمهدية والثاني في مصر وهو ابن المعز لدين الله الفاطمي ؛ وله ديوان مطبوع .

(1) وفيات الاعيان لابن خلكان ص/122 .

(2) مجمل تاريخ الادب التونسي ص/104 لحسن حسني عبد الوهاب.

ولربما التجأت أصول هذه النهضة من المشرق ـ فرارا من جور الحكام ـ الى احضان المغرب كبديل للمشرق العربي وقد بدأ ينخر كيانه الضعف وتنهكه التيارات السياسية المتناحرة المتكالبة على الحكم ٠ ازاء هذا الوضع المتأرجح هاجر الكثير من ادباء بغداد الى الامارات الاخرى وفيهم من وصل الى افريقية ٠

والسبب الثاني الضعف والتفكك الذى اجتاح الاندلس بعد عصورها الذهبية ، والانقسام السرطاني في الامارات الكثيرة ، مما جعل بعض الادباء يعزفون عن الاندلس وينعتون امراءها بالقطط التى تقلد الإسود أسماء وانتفاشا ، وقد وجد هؤلاء الادباء الاستقرار والقوة في الدولة الصنهاجية الفتية ٠

وأنا مؤمن بان القوة السياسية يواكبها نضج فكرى حضاريا وأدبيا ، أو بالاحرى الثورة السياسية تصاحبها أو تمهد لها ثورة ثقافية ٠ واذا وقع خلل أو تنافر بين المقاييس السياسية والانبعاث الادبي فيرجع ذلك الى العقم السياسي وتحجر قوالبه ذات النظرة الفوقية ، ويؤدى هذا التنافر بين السياسة والادب الى تفكك المجتمع ، وتعطل قواه الحية الخلاقة ٠

غير ان السياسة الصنهاجية لم تنزلق فى هذا المنعطف الخطير ، منعطف فصل الفكر الثقافى عن الفكر السياسى ، فآخت بينهما ٠ ولا ننس أن هذا العصر حلقة من حلقات التاريخ التونسي الطويل الملىء بالاحداث والمفاجآت ، بل والتقلبات التى تبدو أحيانا متشابكة غير مقنعة ٠

ولا شك ان هذا العصر يستند على أسس ثابتة من العصر الاغلبي والفاطمي التى تعد من عصور الازدهار التونسي ٠ والعامل الاقوى فى ازدهار الادب التونسي اثناء العصر الصنهاجي يكمن فى الامراء انفسهم الذين امتازوا بالنضج ، والامكانيات العقلية ، والمتانة الثقافية ، والتشبع بالروح الوطنية التى تعتبر الادب خير مقومات الأمة ، وأصفى وجه لها ٠ وكتب التاريخ تروى لنا الكثير عن المعز بن باديس وابنه تميم ، وكانا من انضج الحكام الذين تعاقبوا على هذا القطر ، وهما بلا منازع اكبر امراء الحلية الصنهاجية ٠

كان المعز بن باديس كما يثبت ابن خلكان « محبا لأهل العلم ، كثير العطاء٠ مدحه الشعراء وانتجعه الادباء ، حضرته محط الامال ٠٠٠ » اما تميم فقد

وصفه بانه « محب للعلماء ، معظم لارباب الفضائل ، حتى قصدته الشعراء من الافاق على بعد الدار ، كابن السراج الصورى وانظاره • وكان يجيز الجوائز السنية ويعطى العطاء الجزيل (3) » •

واذا افتقرت النهضة السياسية الى انتعاش ثقافى فان الوعى الثقافى والادبى خاصة يحتاجان الى صفاء ونضج فى المقاييس النقدية • وبهذا نصل الى العامل الرابع من عوامل ازدهار الادب الصنهاجى انطلاقا من المبدأ السليم : « النهضة الادبية بلا نهضة نقدية عرجاء » • واكب التفتح الادبى نقاد اتخذوا المقاييس النقدية دليلا ، بعد ان تسلط الذوق الشخصى على الادب العربى عبر أحقابه التاريخية الطويلة ، وما زلنا نعتز بكتاب « الممتع للنهشلى » و « العمدة لابن رشيق » و « رسائل النقاد لابن شرف » وكلها ألفت فى هذا العصر •

ولربما يضاف الى كل هذا وضوح المدارس الادبية المشرقية والمغربية • وهكذا تظافرت العوامل الخارجية مع العوامل الداخلية لتجعل من العهد الصنهاجى عهد ازدهار أدبى وانبعاث ثقافى ، فى حراسة حس أدبى وعلمى نزيه ، ورعاية أمراء جمعوا بين السياسة والادب • فمن غير المستغرب أن يسمو هذا العصر أدبيا كما سما سياسيا ، لانه يستند الى جذور أصلية وثابتة •

البيئة الخاصة وأسلوب حياته :

تربى فى قصور الملك بالمنصورية تربية خاصة كغيره من ابناء الامراء الذين يولدون مع هالات الاستبشار والفرح ، فهم الملوك الصغار ، وساسة البلاد المنتظرون ، يترعرعون فى نعيم متنام لا ينضب ، وسط التدليل والتطبيل ، ويموتون مشيعين بآلاف الاعين والاذرع •

وفر المعز بن باريس لابنه مناخا أدبيا وفكريا جمع فيه بين التعليم الخاص وحضور المجالس العامة والمنافرات الادبية والعلمية التى يزخر بها بلاط هذا الامير ، وقد ضم اليه ادباء هذا العصر ، وزرع بينهم الخصومات الادبية ، فكان يقرب هذا ليقصى ذاك ، ثم ما يلبث ان يعيده ، فيستميت الغالب

(3) وفيات الاعيان لابن خلكان ص/122 •

والمغلوب فى الظفر بحظوة الامير ، والاستحواذ على صلاته • وكان ابن رشيق وابن شرف فرسى الرهان يضاف اليهما أبو الحسن الحصرى وابن أبى الرجال وغيرهم من أدباء العصر • ولكل هذا تاثير على تكوين الشاعر ، وتأثر بما يدور حوله من التقليد الى الاعجاب • ولما بلغ الثالثة والعشرين ولاه على المهدية ، لكن الزحفة الهلالية المدمرة عصفت بملك الأب ، وحطمت القيروان عاصمته المحببة • واظهر المعز تساهلا فى ادخال الاعراب واستقبال اعيانهم ، مما مكنهم من تحطيم ملكه ، وكان رأى تميم ان يجابههم المعز بالقوة ، وان لا يظهر لهم اللين ويحتضنهم بحفاوة الاستقبال ، فحدثت بين الأب والابن ــ كما يقول الدكتور حسين مؤنس ــ : « جفوة خفيفة (4) » غير ان المعز التجأ الى ابنه السند الاخير بالمهدية بعد خراب القيروان سنة 444 هـ• فاكرم مثواه وان لم يمكنه من مقاليد الحكم ، وهذا يثبت الرأى القائل بحدوث الجفوة بين الابن وأبيه ، ولربما انغرس فى ذهن الشاب مزيج من الالم وقلة الثقة فى قيادة الأب الشيخ ، خاصة بعد الفشل الذى أظهره فى حروبه مع الهلاليين ، اذ تغلب عليه شذاذ الاعراب المرتزقة بـ 30 الفا وهو يعد ثمانين الفا • ونزعة التملك التى تستحوذ على مشاعر الانسان وتزين له حب السلطة ، هى التى سممت العلاقة بين الابن وأبيه ــ على ما أعتقد ــ والا كيف نفسر هذا الاستياء المفتعل من الابن ؟ الا تكون خيوط الشك عملت مفعولها فى ذهن تميم ، فحذر من أبيه على امارة المهدية وقد استأثر بها كشاهد اخير يحكى مجد الاجداد ، ويقبع داخل اسوارها ليحفظ ما تبقى من العائلة المالكة ؟• وأنا الجأ الى هذا الاعتقاد مستندا على المصادر التى تشيد بسياسة المعز ، فكيف يسخط الابن على سياسة فشلت مرة ونجحت مرات ، وشهادة الاعداء خير دليل واصدق حكم فى كل الظروف • فهذا على بن رزق الرياحى احد الاعراب الذين غزوا افريقية يسجل الوقائع فى قصيد طويل :

الا طرقتنا من أميم خيال وايدى المطايا بالذميل عجال

ويشير الى المعز بن باديس بكل احترام وتقدير :

وإما ابن باديس لأحزم مالك ولكن لعمرى ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثمانين ألفا ان ذا لنكال (5)

---

(4) هامش الحلة السيراء تحقيق الدكتور حسين مؤنس ص/22 •
(5) الحلل السندسية فى الاخبار التونسية القسم الرابع ص/945 للوزير السراج •

كيف نفسر اعتراف العدو ، وهل لنا ان ننزه نية الابن المنطوية على الحسرة والانخذال مع التمسك بالمهدية الاثر الباقي وعدم التفريط فيهـا حتى لـولى نعمته ؟٠ المهم ان « تميم » عاش ازمة تأنيب الضمير ، وتفـاعلت فى كيـانه عملية الأبوة والواجب مع حب الملك والمصلحة الآنية ، فلم يعنف الأب ، ولم يمكنه فى نفس الوقت من حقه الشرعي ، وما اشبه هذا التصرف المأسوى فى عملية الازاحة التلقائية بانقلاب فنى هيأت مسرحه الظروف ، وأملته نـزوة الحكم ، فاشتدت المحنة على المعز المهزوم داخليا وخارجيا حتى توفى ٠ « وبعد وفاة المعز صار « تميم » أميرا حقيقيا فملك افريقية وما ولاها بعد أبيه وكان حسن السيرة محمود الاثار (6) » ٠

وأود أن أنقل فقرة طريفة كتبها المؤرخ ابن عذارى المـراكشى فى بيـانه المغرب ، وكان غريبا حقا فى ما رواه عن حياة تميم الخاصة وتصرفاته العجيبة فى نظام عيشه : « كان جميلا وسيما ، مديد القامة ، درى اللـون ، أشـم ، أبلج ، وكان يكثر من استفراغ بدنه ، ويرى بذلك تتمة صحته ، فيستعمل كل حار من الادوية والاغذية ، ويكثر من الاصطلاء بالنـار ، ويدخـل الحمـام الحار ، ويكثر الجماع ، ويشرب الادوية المقوية كالمحمودة وغيرها ، ويجاوز فى ذلك المقدار ، حتى جف لحمه وفسدت حركاته الطبيعية ، واقعد ثم مات سنة 501 هـ ، فكان عمره 79 عاما ، وولايته من يوم وفاة أبيه 46 سنة ، وخلف من الاولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة (7) » ٠

ورغم النزعة الاسطورية التى تسيطر على بعض الجوانب فى هذه الفقرة ، فاننى اريد ان اسلط عليها بعض الاضواء ، علها تسهم فى الالمام بشخصية الشاعر الخفية ٠ فانا لا أرفض هذه الاخبار من الاساس ٠ بل أحاول تعليـل التصرفات ، وقد وجدت فى « المؤنس » اشارة الى هذه الاخبار ، غير ان ابن أبى دينار لم يورط نفسه برواياتها تحاشيا للمبالغة ٠ امـا انـا فلـم الاحظ اختلافا كبيرا بين مزاج الشاعر وهذه التربية الالزامية التى حاول تـرويض نفسه بها ٠

1 ـ ان هذا الاسلوب القاسى الذى ارتآه « تميم » ما هو الا عملية رد فعل للنعمة والبذخ الغارق فيهما ، ولعلها ردة نفسية بعد ان شعر بواقع بلاده الذى

---

(6) البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ص/437 ٠

(7) نفس المرجع ٠

يتطلب الحزم والعزم ، ولربما أعطته زحفة الهلاليين درسا عمليا ، فاثبتت له ان النعمة لا تدوم • ونمط الحياة الجديد محاولة لسبر النفس ، وحملها على المكاره التى تترصد الامراء والملوك • وهذا الاسلوب طالما عود الملوك أبناءهم عليه كنوع من التربية الاسبرطية ، تحسبا للطوارىء وتقلبات الملك • فنزعات القسوة لا يخلو منها عصر مهما كان استقراره ، وشبحها يخيف كل أمير •

2 ـ يثبت هذا الاتجاه فى التربية والتداوى ميل « تميم » لاسلوب حياة العوام الذين يزعمون ان الدواء الكريه يزيل الداء المتمكن ، وينفرون تبعا لهذا من كل دواء مستساغ حلو الطعم ، لخلوه من حصانة العنف المكتسح لكل داء مستوطن •

3 ـ استفراغ الشاعر لبدنه القوى المكتنز واستهلاكه لقواه صفة امتاز بها حتى فى محاربته الاعداء المتكالبين على ملكه؛ففى الموسوعة الاسلامية : «ان تميما اظهر مقدرة عجيبة فى الاوقات العصيبة التى كانت تحيط به عند اعتلائه العرش ، وتجهز فى المهدية التى بقيت له من كل املاكه لاستعادة مدن افريقية بعد ان استقل بها ولاتها ••• (8) »

وتظافرت الازمات على الشاعر الامير : « ففى ايامه كانت المجاعة الكبرى بافريقية ، والوباء الذى لم يسمع بمثله (484 هـ) ، وقد قضى أغلب أوقاته مقاوما فيها الثورات التى كانت من بنى عمه ومن العرب (9) » • اذا فقد اظهرت هذه التربية جدواها ، وأتت أكلها إبان الحاجة • هـذه بعض الملامح عن شخصية الشاعر الامير ونظام حياته ، فما هو انعكاس هـذه الحياة فى شعره •••؟

الشعر وحياة القصر :

كانت المنابع الثرة لشعر تميم بعيدة عن جو السياسة والحكم وابهة الملك ، وقريبة من الحياة الناعمة الدافئة ، وسط ثراء القصور وبهارج الحضارة ؛ هذه هى السمة البارزة لشعره • شعر ارستقراطى مترف فى اشكاله ومعانيه ، لا ينمو الا فى ظلال القصور واكناف حدائقه الخضر ، مع

---

(8) الموسوعة الاسلامية مادة تميم ص/437 •

(9) المؤنس فى اخبار افريقيا وتونس لابن أبى دينار ص/85 •

الحان القيان وزخات الخمر واصوات الجوارى · فالشاعر ابن بار لبيئته الخاصة ، وشعره صدى لعيشته المنعمة ·

الخمر والغزل خطان متكاملان لفن الشاعر طغيا على بقية اغراضه · وماذا غير اللهو والحب لأمير مترف اجتمعت لديه كل وسائل الدعة والرفاه مع الشباب المتمرد · ولعل هذا المفهوم للشعر من الصق المفاهيم بحياة الشاعر ، خلجات نفسانية تدغدغ كيانه العابث المنطلق وراء المتعة · وماذا ننتظر من شاعر أمير ؟ أننتظر صدى الكادحين وانات الضعفاء ، أم صرخات الفقر والتسول ؟ هذا هو مضمون شعر الشاعر ؛ أما شكله فلم يكن أقل رقة من ضحكات جواريه ، وهمسات أوتار عيدانه ، ولون خمرته فى لياليه الصاخبة، وخمريات تميم تذكرنا بخمريات أبى نواس ، بل تكاد تكون صورة مصغرة من هاته الخمريات ؛ عشق الخمرة وأحبها ، فوصف جزئياتها ، وتفنن بمجالسها· أحبها كالنواسى حبا ماديا لا صوفية فيه ، ولا روحية ، ولا مواربة أو تستر ؛ انه الأمير الشاعر الآمر الناهى :

لا ابالى اذا شربت ثلاثا اى قاض بالجور يقضى عليا (10)

فلسفة الشاعر واضحة : المادية البحتة ، والتمتع بما وفر الله له ، وأفاء عليه ؛ فالعيش عنده كما هو عند النواسى ، خمرة وقيان ، ودندنة أوتار :

قم يا نديمى هاتها حمراء ترمى بالشرر (11)
ما العيش الا بالسلام وبالقيان وبالوتر

واذا عزف النواسى على الوقوف بالاطلال ، ووصف النساء ، وجعل صفاته لابنة الكرم ، فان عيش تميم قصره على المدام ، وأصوات الجوارى والقيان التى تؤلف مجموعة صوتية متجانسة مع بعضها، تضىء الليل وتقصر ابعاده المملة :

ما العيش الا مع التهجيد والدلج أو المدام وصوت الطائر الهزج (12)
والشرب بين الغوانى والقيان معا فان أوجهها تغنى عن السرج

---

(10) خريدة القصر وجريدة العصر للاصفهانى ص/186 ·
(11) نفس المرجع ص/187 ·
(12) نفس المرجع ص/170 ·

والخمرة لا تلذ الا من يد جارية قال فيها النواسي :

تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا … فمالك من سكرين من بد

وقال فيها تميم :

وكأسا مثل عين الديك صرفا … وماء المزن بالشهد الجني (13)
يطوف بها مليح ذو دلال … مريض الطرف ذو خلق رضي
شربت على مدامعه مداما … كماء المزن والمسك الزكي

والمرأة نوع من الخمرة عند الشاعر ، بل صنف جيد منها ، كل شيء فيها يذكره بالقدح وانفاس الدن . وتتضح مادية الشاعر في التهالك على اللذة « والاكثار من استفراغ جسمه بالمعاشرة والجماع (14) » كما روى ابن عذارى المراكشي . وكثيرا ما تتساوى الخمر والمرأة ، فيعيش الشاعر وسط شطحات شهوانية لا يميز فيها بينهما ، كل له مغنطيس خاص وجاذبية متميزة ، وكلاهما في حاجة الى الآخر ، لذلك احتار الشاعر في ايهما المسوغ لصاحبه :

وخمر قد شربت على وجوه … اذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد في ثغور … كدر في شعور مثل آس

انها الشهوة العارمة ، والتكالب على المادة واللذة المزدوجة التي يملكها ولا يعرف مصدرها الحقيقي ، أهي المرأة أم الخمرة ، أم تكاملهما الدائم :

وأسقيه من كأسي وأشرب فضله … فينهل من فيه ومن فيه أمزج
هو الخمر الا انه خمر مرشف … يمج به الثغر النقي المفلج

وقل ان نجد قصيدة غزلية لا تقترن بالخمرة ، ومن هنا تظهر لنا حياة الشاعر الخاصة ، حياة القصر بمتعه وعيشه ، حياة حاول سترها عن شعبه ففضحه احساسه الشعري .

اختار تميم الانماط المحببة في الشعر التي تداعب الوجدان وتفجر الشهوة ، وقلل من الفخر والحروب والغزوات ، لان الامير الشاب يقدم على

(13) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ص/186 .
(14) البيان المغرب لابن عذارى ص/437 .

هذه المعارك كارها ، ويخرج منها حامدا السلامة ، فكيف يستعيد ذكرياتها الدامية ؟ لذلك لا تروى له الا مقطوعات متفرقة فى الفخر والحروب لا قيمة لها فنيا • لعل هذا يرهق مزاج الشاعر الملكى المدلل رغم ما اشتهر بـه من قسوة وسرعة فى قمع الثورات ، ودراية فى مسك مقاليد الحكم التى تداعت فى عهد أبيه بالزحف الهلالى المدمر ، ولولا المهدية التى اعتصم بهـا الشـاعر لذهب ملك بنى زيرى ، وانزاح عهد الصنهاجيين فى تلك الفترة الحرجة من تاريخهم •

والمنتخبات التونسية ـ أو مجمل تاريخ الادب التونسى ـ تروى للشاعر مقطوعات سياسية هادفة ، اما بقية المجاميع فتكاد تهمل هذه الناحية ، وتقتصر على الالوان التى ظهرت فيها براعة الشاعر • والالتقاء بين الشاعر وأبى نواس ليس من باب الصدفة او العفـوية التلقائيـة ، بـل يظهـر لى انـه مـدروس ومقصود ؛ فالامير يعجب بنزعة النواسى •• يعجب بخمرياته التى تجمع الى الزندقة المحرجة خفة الروح ، مما جعله يتغاضى عن هنات أبى نواس ، ويغفر له تمرده الدائب ضد الدين والتقاليد لظروف حياته المتعبة ، ولاسلوب تربيته الذى لا دخل له فيه ، فكانت خمريات أبى نواس مثالا أمام الشاعر يقرأ ويتأثر به ، ولربما مر بفترة المحاكاة والتقليد ، قبل ان يصل الى ذلك النضج وجودة الاستيعـاب •

وقد ختم أبو نواس حياته اللاهية بتوبة وورع بعد وصوله سن الشيخوخة وقعوده عن مسارح اللهو ، لا لعفة فى نفسه التى ما زالت جائعة لاهفة ، لكن لنذير الموت والخوف من عذاب الآخرة ، فتوجه الى ربه السنـد الاخير بهـذا الدعاء الذكى الذى لا يتضرع فيه بقدر ما يحتج :

يـا رب ان عظمت ذنـوبى كثـرة　　فلقـد علمـت بـان عفـوك اعظـم
ان كـان لا يرجـوك الا محسـن　　فبمـن يلـوذ ويستجيـر المجـرم

هذه حالة أبى نواس فى سنواته الاخيرة : ضعف وشيخوخة ويأس ورجوع الى الله ، لا لاظهار المسكنة ، بل لطلب نصيبه من الغفران ، اشارة الى نظرية الجبر والاختيار •

اما تميم بن المعز فقد وصل الى سن السبعين وهى سن اليـأس والتقوقـع والانكماش ، وأوهنه المرض كما روى ابن عذارى حيث اصيب بجفاف الاعضاء

واستهلاك البدن ، فرجع الى ربه رجعة أبى نواس كأنه أراد تقليده حتى فى التوبة وطلب العفو والغفران ، بل وفى التفعيلة والبحر • واذا كان عذر أبى نواس ان الله مجبر على العفو لان العبد الضعيف لا يملك حتى افعاله ولا ملاذ له الا الله ، فان « تميم » يتمسك بالشهادتين كانه يشير الى قول الرسول « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك ••• » ، فكأن الشهادتين هما جواز المرور للجنة ، وصك الغفران :

فكرت فى نار الجحيم وحرها   يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربى ان خير وسيلتى   يوم المعاد شهادة الاخلاص

البناء الفنى :

من المؤسف ان لا اطلع للشاعر على قصائد شاملة البناء حتى اناقش بناءه كما حاول صياغته • وكل الذى بين يدى مقطوعات قد تطول وقد تقصر اختارها مؤرخو الادب القدامى • اما الديوان فلم اعثر عليه ولعله لم يطبع ان لم يكن مفقودا ؛ غير ان ابن عذارى يؤكد كبر حجم الديوان وشهرته ، ناعتا الشاعر بانه « احد فحول الشعراء الملوك ومن ذوى السبق فى معانيه وبدائعه ، حوى فيه الجودة والكثرة ، وله ديوان شعر مشهور (I5) » • واناقة الشاعر قد لا تظهر فى لباسه الملكى الثمين فقط ، بل تظهر حتى فى شعره ، وهى أبقى وأخلد • فتميم أنيق العبارات ، يحسن الانتقاء ، ويمرر كلمات شعره على حاسته الفنية الجيدة • فشعوره بالكلمات هو الذى أضفى على شعره هذا الرونق الخاص الذى لا نجده فى عصره : انتقاء الموسيقى ، وحضرية المعانى • وأول ظاهرة فى شعره تركيزه الواضح على بحور خفيفة اشتهرت بموسيقاها الهادئة فى الشعر العربى ، وشغف بها شعراء الفترة العباسية باعتبارها لونا من التجديد ، لان القدامى لم يحفلوا بها كثيرا : كالمجزوءات ، والمشطور ، وبحور الكامل والمتقارب ، وقد امتازت بتكرار التفعيلة وتجانسها ، مما حببها لدى الشعراء وقربها من الاذان الموسيقية •

ولا شك ان « تميم » اختار هاته البحور لسهولة أدائها لدى الغناء ، وهو المغرم بالغناء والموسيقى وأصوات القيان التى تعج بها قصوره •

(I5) البيان المغرب لابن عذارى ص/436 •

ولحرص الشاعر على الموسيقى لا يكتفى بالقوافى العادية وانما يعمد الى القوافى الوسطية ، فلكل تفعيلتين قافية موحدة ٠ وهذا النوع من البراعة البديعية سماه الاقدمون ترصيعا ، وهو يشبه السجع النثرى ، غير انه يصاحب الشعر فقط :

بنبل الجفون وسحر العيون ومـيل الغصون كميل الرماح (16)
ولمع الثغور وبيض النحور وضيق الخصور وجول الوشاح
وورد الخدود وميس القدود وضم النهود ولثم الاقاح
وكأس المدام غداة الغمام يلف الغمام فراح براح

وقصائد الشاعر تعد انموذجا للترصيع فى العصر الصنهاجى ويظهر تميم صناعا صائد بديع يحفل باللفظ اكثر منه بالمعنى ، وقصائده معرض للزخارف البلاغية ؛ وكأنى بالشاعر حرص على التزويق الشكلى ولم ينتبه للمعنى ، وعد الابيات الشعرية معروضات يزدان بها قصره ، وقد سبب له هذا ارتباكا وغموضا فى المعنى ، بل وتكلفا احيانا ، كما يظهر فى الابيات السابقة فى « يلف الغمام » لا معنى لها فى البيت و « جول الوشاح » حشو فرضته القافية ، والكناية التى تذوقها الشاعر اكثر من المرأة ٠ وقد يلجأ الشاعر الى الغريب جريا وراء القافية متناسيا المعنى :

كان الرحيق بكف العشيق نظام العقيق بجيد الرداح

والرداح المرأة الثقيلة الاوراك ، والكلمة ظاهرة التكلف وكيف يتأتى وجود امرأة يجول وشاحها خفة ورشاقة وهى مع ذلك ثقيلة الاوراك ٠

ومن عشق الشاعر للتشابيه نلاحظ العنت المزرى فى اقتناصه حتى وصل به احيانا الى التعسف والتعنت وقلة الذوق ، من ذلك تشبيه الريحان والزهور المفتحة برأس الراهبة الشمطاء ، وليتها كانت راهبة ٠ فقد اختار اقبح تشبيه وابعده على صفاء الذوق ، فنحن نشعر بهيبة الدين ووقاره فى موضع غير مناسب ونشعر الى جانب هذا برأس اشمط لا ادرى ماذا يوحى للانسان :

ومجلس فيه ريحان وفاكهة نظل نلهو به حينا وتغتبط (17)
كان سوسنه المبيض حين بدا رأس لراهبة يبدو بها الشمط

(16) الخريدة للاصفهانى ص/170 ٠
(17) نفس المرجع ٠

وفرص الشاعر تبدو احيانا محدودة فى اختيار الجيد من التشابيه ، يكدسها بلا روية ، ويجرى وراءها كانها كشف كبير :

وخمر قد شربت على وجوه اذا وضعت تجل عن القياس
خدود مثل ورد فى ثغور كدر فى شعور مثل آس

فالمقطع « كدر فى شعور مثل آس » صورة محشورة بقسوة وسط السيل الدافق من التصنع ، لا علاقة لهذا التشبيه بالصورة الاولى التى تمثل الخمرة فى افخر مجالسها ، ووجوه النساء فى ابهج زينتها ٠ واذا سلمنا باحمرار الدر فماذا يمثل الشعر بالنسبة للصورة الاولى ؛ تشبيه كل هذا بالاس والريحان لا يخلو من التكلف ، لم يراع الشاعر فيه الا حاسة البريق اللفظى الذى اغراه بالانزلاق وسط هذا الاهمال المعنوى ؛ حاول اصطياد المحسنات لكنها صادته وجعلته عبدا يركع تحت قدميها ٠ ولا نستغرب من تميم هذا الميل الى الزينة اللفظية وهو الامير الانيق الذى يحاول تزيين ذهنه بالصور الفنية كما زين قصره بانواع المتع ؛ انها الاناقة وحب الجيد ٠

ولا ننس ذوق العصر الذى كان ينحدر نحو الاعتصام بالقواقع البلاغية فى الشرق والغرب : نشأت المقامات والرسائل ، وغالى الادباء فى ميولهم البديعية التى ازرت بالادب العربى ، وكانت جناية على هذا الادب ؛ ومهد زعماء التصنيع والتكلف لهذا العصر من بديع الزمان الهمذانى والخوارزمى ، الى الصاحب بن عباد وابن العميد ، فكانوا ارهاصا صادقا لعصر الصنعة الممجوجة ، والتكلف الضيق ، المحشور فى قوالب الالفاظ ؛ وفى عصر تميم نشأت المقامة الحريرية والطريقة الفاضلية فى مصر ، انشأها القاضى الفاضل وقد « عنى بانواع البديع عناية عظيمة وألح على التورية والجناس فوقع فى الغموض وتعقد انشاؤه ووافق ظهور طريقته جمودا فى الافكار وحدا من الانطلاق الادبى (18) » ٠

غير ان « تميم » لم ينحدر الى هذا الوحل ، لان شاعريته أبت ان تتضرع فكان شعره ـ رغم الصنعة المبالغ فيها احيانا ـ ظاهرة جميلة أنيقة الالفاظ مختارة الصور ، وهى قريبة من ذوق الشاعر واحساسه ، قريبة من القراء على اختلاف مشاربهم واهوائهم ٠

ع٠ د٠

---

(18) أدباء العرب فى الأعصر العباسية بطرس البستانى ص/425 ٠

الصمت

شعر : عزيزة هارون

في الصّمت أعرف البعد الّذي جرّحني
وأعرف القيد الّذي طوّقني
وأعرف البراءة العتيقة
في الصّمت يخضلّ المدى في عالمي
وألمس الغلالة الرّقيقة
وأدرك الحقيقة
أنا التي جنيْت
ما زال في يديْ
يلمع حدّ السّيف
بَريقُهُ يخطف من عيني
أحلى نجمة
يريد أن يزرعني
في هوّة عميقة
لا يا بريق السّيف لست أنا
فالقدر المصلوب في أعماقيّ الطّليقة
هو الّذي جنى
وانّني كما ترى
شاعرةٌ حالمة رفيقة
أرتّل الدّعاء في المساء

وأرسل الصّـلاه
نـاعمة رقيقة

***

يـا سيفيَ الّـذي هـوى
بيـن يـديْ
وراح يكشف الدّجى عن مقلتيْ
تَستطيع أن تقتـل فيّ
كـل شيْ
عـدا بـراءتي
فإنّها بـراءة غبيّة عريقة

ع. ه.
ـ دمشق ـ

◆ **مسابقة 9 أفريل الأدبية :**

تعلن مصلحة التوجيه للحزب الاشتراكي الدستوري والشركة التونسية للتوزيع عن مسابقة (9 أفريل 1938) القصصية في النطاق القومي حسب الشروط التالية :

1 ـ أن تكون الرواية مستوحاة من كفاحنا القومي .
2 ـ ألا تقل عن 80 صفحة مرقونة في خمسة نظائر .
3 ـ ألا تكون الرواية قدمت لمسابقة أخرى .
4 ـ مقدار الجائزة ألف دينار من الشركة التونسية للتوزيع .
5 ـ آخر أجل لقبول الروايات المتسابقة آخر شهر مارس 1973 .
6 ـ توجه المواد إما الى مصلحة التوجيه بادارة الحزب أو الى الشركة التونسية للتوزيع 5 شارع قرطاج تونس .
7 ـ تتعهد الشركة التونسية للتوزيع بنشر الرواية الفائزة مع ضمان حقوق التأليف .
8 ـ يعلن عن نتائج المسابقة بمناسبة احدى الذكريات القومية .

نوبة ألم ونغم

قصة ، بقلم : فاطمة سليم

... انساب النّغم ... أنا عذراء في قلبي ألم ... في جفني دموع .. أنا حسناء في أعصابي حنين .. شعري شلاّل من حرير في لون العنبر .. أنا هائمة أرتجف .. ألمي فاق كلّ عقاقير الصّبر والنّضال التّي دهنت بها أعصابي طيلة أيّام وليال .. الويل للجدران .. ما أسمك حجارة الجدران .. سجنت فيها شبابي مختارة ، من أجل شيء اسمه العلم ، اسمه المستقبل الحسن .. خنقتني الجدران وأخيرا لفظتني بدون رحمة .. لم تمنّ علي بالورقة الصّفراء التّي اسمها شهادة .. فأيضتني ظلما .. سلبت منّي راحة البال ووهبتني صداعا مزمنا .. افتكّ منّي السّهر على الأضواء الخافتة مستوى النّور في عيني .. والكثير من حيويّتي .. ورماني بمقاومة مجانية للطّبيعة سأكون حتما نعجة الفداء في معركتها .. النّغم يتفجّر منك يا عندليب .. والألم يتفجّر منّي يا عندليب .. أنا أبكي في حرقة أنتف شعري .. الهستيريا تنفضني بلا رحمة .. أنا لست وحدي في الغرفة .. حولي الكبار والصّغار .. أمّا الكبار فقد تغامزوا وتواصوا بالصّمت .. من يدري لو نهروني ماذا يحدث قد أجن حقا .. قد يتفجّر في مخي ينبوع من الدّم .. قد أفقد الصّواب فأمسك زجاجة أو كاسا أقذف به من يواجهني انّهم يقولون في أنفسهم : « ... لن تلام هذه المخلوقة وأنّى لها القدرة على الوعي والصّبر وظروفها مؤلمة ووضعيتها خناجر حادة تخز جنبها

باستمرار » . أمّا الصّغار فقد كتموا ضحكاتهم المخنوقة وراق لهم مشهد الجنون الّذي تمثّله العذراء القلقة .

* * *

أنا أقوم إلى التّلفاز .. أرتعش في جنون .. أنتفض بلا وعي . أرفع الصّوت .. صار صوتك صداحا يا عندليب .. زلزل المكان زلزالا .. رفع المارة رؤوسهم متوقّفين لحظة مع النّغم .. ثمّ واصلوا طريقهم .. عزف الآلات كان شجوا صرفا .. متعة صرفا .. ترياقا .. خدرا لذيذا .. قمة في الطّرب المؤلم .. الممتع .. المبكي .. المفرح .. يا عندليب .. أنا عذراء اتلولب حول نفسي .. شعري عنبر .. شلال من حرير تهدل على كتفي .. غطّى جبيني .. حجب عيني المملوءتين دمعا ساخنا .. أنا أنتفض وسط الغرفة .. أقف .. أجلس .. أدور .. أرقص .. أرتعش .. أحملق في وجهك الجميل يا عندليب أسمر .. ما أقدس الرّوعة ... عندما تتظافر العبقريات لتخلق شيئا كلّه حياة ... اسمه فن .. روعة الكلمات مع روعة اللّحن والعزف .. مع روعة الأداء .. إنّه العطاء حقّا والكرم الجميل .. إنّه الثّراء .. ألمي سخي .. جسمي طري .. كبتي كبير .. آمالي ضائعة .. حساسيتي مرهفة والنّتيجة يا عندليب علامات استفهام عاجلة .. وعلامات تعجُّب آجلة ..

* * *

لماذا هدأت يا عندليب ؟.. فيم تفكّر .. هل هذا هو الهدوء الّذي يسبق العاصفة أم هو هدوء الألم الصّامت .. عندما يمتص رحيق الحياة من صاحبه دون أن يدري ؟.. الضّجيج من حولك ..

الجمهور أمامك .. والتخت وراءك .. والأضواء فوقك .. وأنت صامت سابح في الصّحارى البعيدة .. في جبهات القتال .. مع الأبرياء المشرّدين على التخوم .. في الأرض السّليبة .. الرّمل الحار سقاه الأبطال بدمائهم الزّكيّة .. الخبز حرم منه الشّيوخ .. الحلوى لم يعرف الأطفال طعمها .. حليب الأمّهات الشّابات جفّ من الرّعب والألم على فراق الأهل والأحبّة .. الكتاب لم يفهم القوم مغزاه .. الحرب متى تضع أوزارها؟.. والسّلام متى يحين؟ والنّائمون متى تكون يقظتهم ؟

* * *

فجأة ها أنت تصرخ يا عندليب وجهك ينقبض ولا ينبسط .. ماذا ؟ هل تذكّرت لعلعة الرّصاص على حدود القدس .. هل تذكّرت أزيز القنابل تسّاقط على رؤوس السكّان الآمنين تزيد قلقهم وفقرهم وصراعهم مع الحياة .. عاهات وقتل .. وثكل وفناء .. ودمار .. وتشريد .. وتقهقر حضارات وعمران .. وخبال في العقول .. وهيمان وقلق وإلحاد بكلّ القيم ....

* * *

موعود للعذاب .. للنّار موعود ..

صحيح موعودة لكلّ ذلك .. أحذيتي أدمت قدمي بحثا عن الشّغل .. هل بقيت مؤسّسة ما لم أدخلها .. لم أطرق باب رئيسها .. لم أشرح له وضعيتي .. لم أسأله عملا .. ؟ ! والكلّ بلا استثناء يصعدون فيّ النّظر لحظة زمانيّة ويحرقون صبري وأملي مع احتراق سيجارتهم ويرتشفون دهشتي مع ثمالة القهوة الّتي بين أيديهم .. ثمّ يفجّرون على وجهي القنبلة المسيلة للدّموع قنبلة الأسف : « نأسف أيّتها الآنسة ليس لنا شغور » .

كم كرهت كلمة الأسف .. هذا البريد يحمل إليّ كلّ يوم أكواما من الرّسائل ردّا على مكاتيب العمل التي بعثتها .. كلّها تحمل كلمة الأسف .. الاهي أسفي من الأسف .

* * *

عيد .. أي عيد هذا .. دعوني أضحك ملء اشداقي .. قد يكون العيد حقّا عيدا عند الآخرين .. عيدا يلتقي فيه الأحباب .. يمرح الصّغار بأثوابهم الزّاهية وأذهانهم الخالية .. وقلوبهم الصّافية .. وألعابهم الصّاخبة ويتنهّد فيه الكبار ارتياحا بعد ضنى أنتج بهرجا ومظاهر خلاّبة .. أمّا العيد عندي فليس بعيد .. إنّه يوم أقلّ من العادة رقمه صفر على اليسار ..لم أجد بعض المليّمات معلوما للبريد لأجيب معايدا صغيرا كان الوحيد من مجموعة الأصدقاء والأحباب الّذي يتذكّرني أنا بالذات ويكتب لي معايدة باسمي : آه يا صديقي ...

* * *

دعوني أمارس طقوس الجنون .. دعوني أرقص .. أهدل شعري .. أنتفه .. أبكي .. ألطم وجهي .. أذبح صبري ووقاري .. ألقي بثيابي إلى النّار .. حذار أن تتكلّموا .. أن تتحرّكوا من أماكنكم .. غنّ يا عندليب .. ابك يا عندليب .. اصرخ يا عندليب.. جرّ يا قيثار .. حنّن يا مزمار .. دقدق يا طبل .. أيّها المنشدون .. أيّها المردّدون .. ارفعوا أصواتكم أكثر زوّدوا النّار في قلبي .. فقد سئمت البرد والصّبر .. غايتي أن يراق دمي .. أن تنسكب روحي مدادا على الأرض .. بخارا في السّماء .. غايتي أن أنسى .. أنسى كلّ شيء .. أنسى نفسي .. أنسى أنّني عذراء .. قاومت الطّبيعة وكنت نعجة الفداء في المعركة .. أنسى أنّني كنت التّلميذة

المثالية التي تسقط في الامتحان بسبب الإرهاق والتعب والخوف .. لا بسبب الضعف والكسل .. دعوني أنس معدلاتي الممتازة .. وأوراقي النظيفة وكد الفصول الأربعة مضاعفة .. دعوني أنس لجان الامتحان ونظرهم القصير لما بين أيديهم وعيونهم الجامدة ورؤوسهم الجبسية التي لا تلتفت إلى الوراء ولا إلى الأمام .. حسبها ما بين يديها .. أنس أنني بحثت طويلا عن شغل .. أي شغل فلم أجد .. أنس أنني أصدم في اليوم ألف مرة ... وأنس أنني حلمت في يوم ما بالجامعة .

* * *

دعوني أدقق على الأرض دقا موزونا أو لا موزونا .. المهم أن تتساقط ذرات من التراب في أطباق الحلويات التي تصنعها جارتنا الثرية الحلوانية .. شهية تلك الأطباق لذيذة تلك الأصناف .. زكية تلك الروائح .. تصنعها جارتنا منذ سنين وترسلها إلى حيث لا ندري .. أنا لست طماعة ولا حسودة .. ولكن وجوه اخوتي شاحبة وطالما تطلعوا بأعينهم الصغيرة .. وتشمموا بأنوفهم الحمراء .

* * *

غنِّ يا عندليب .. كم أنت رائع يا عندليب .. ألست سعيدا يا عندليب ؟.. لماذا يرتسم الألم ويصرخ الحزن على وجهك يا عندليب ؟.. شعرك السبط الجميل يا عندليب على جبينك الأسمر يضيء كمرآة مؤطرة مصقولة .. يا عندليب .. أقدامك مركزة على الأرض كأنك سمرت بالمسامير .. لا ترقص .. لا تهرّج .. يداك تشيران للأفق البعيد .. صوتك الحنون يخترق الفضاء .. يمزق سكون الليل .. يثير الشجن .. يدر الدموع .. يرقق الأحاسيس ..

أحاسيس الجبابرة والطّغاة .. والنّاس العاديين .. آه تذكّرت يا عندليب .. بأعماق كبدك مرض خطير .. في الياف حنجرتك تعب غريب .. بقلبك لا شكّ سرّ دفين .. في حياتك يا عندليب نقطة استفهام كبيرة ؟ ... آه يا عندليب .. ألست تجد البرء في صراخ هذه الجموع الهازجة ؟.. ألست تجد الراحة والسلوى في صدى تصفيقهم .. في هتافهم باسمك .. في اعجابهم بفنّك ؟.. أنت تغني من أعماق قلبك يا عندليب .. أنت تنسى الدّنيا .. إنّي أرى الغشاوة على عينيك .. أراك لا ترى أحدا .. لاتهتمّ بأحد .. الآلاف الّتي تغصّ بها السّاحة .. الملايين الّتي تنصت لك بكلّ احساسها من وراء التّلفاز والمذياع .. أنت لا تتصوّرهم في هذه اللّحظة .. لا تحاول أن تجاملهم .. أن تجيد من أجلهم .. لا .. أراك تغنّي لنفسك .. تغنّي للفنّ مطلقا .. تغنّي لي أنا .. أراك تعيش الكلمات بكلّ ما فيك من احساس .. أراك تتمرّغ في هذه اللّحظة في النّار والعذاب والألم ومشاكل النّاس .. أراك لحنا مطلقا .. فنا صرفا .. شيء عظيم أنت يا عندليب .. هكذا يكون الفن يا عندليب عطاء مطلقا أو لا يكون .. .. أنا معك يا فنّان .. لا أهتمّ في هذه اللّحظة بأحد إلاّ أنت .. أنت يا عندليب .. أنت وأنا .

* * *

قلت يا عندليب أنّي نعجة الفداء في المعركة .. معركة أنوثتي مع الطّبيعة .. أتعرف ما معنى ذلك يا عندليب .. أتعرف ما معنى أن تتحجّر الأنثى فتصبح بلا احساس .. لا تعرف الحبّ .. لا تفكّر في غذاء الجسد ؟.. أتعرف ما معنى أن تنفر المرأة من كلّ رجل يمد لسانه ليلعق كلماتها .. يمد عينيه ليكتشف ما في عينيها ..

يمدّ يده ليغل يديها .. يمد قلبه ليتوئمه مع قلبها؟.. كلّ ذلك لسبب بسيط رضعته مع الحليب .. شيء اسمه الواجب ... علّموني يا عندليب أنّ من واجبي أن أكد لأكسب .. لأغيّر الوضع الموروث عن أجداد الأجداد .. أن أنتقل بالعائلة من بيت متواضع إلى بيت محترم .. من السّير على الأقدام ... إلى السّير في السيّارات المريحة .. من الأكل البسيط إلى الموائد العامرة .. شربت هذه الأحلام مع الحليب وظللت أشربها طوال طفولتي وشبابي ..

... كان أبي يقول لي - والسيجار في فمه ووجهه المغضن ينضح تعبا ، وعيناه المكدودتان تفرضان الطّاعة والاحترام - : « اجتهدي يا بنتي فأنا أنتظر منك تسديد الدّين والقيام بالواجب » .. آه يا إلاهي .. أحقا من واجبي أن أسدّد دينا لم أقترضه ؟ !.. وكانت أمّي تقول لي - في الشتاء والعواصف تولول خارج غرفتي وهي ترعاني .. تدفىء الغرفة .. تزيدني الدثار .. تجهّز لي الحساء السّاخن والشاي المنعنع .. تقبل رأسي - : « اجتهدي يا بنتي .. فكّري في تحسين وضعنا .. أبوك لم يكسب عقارا .. لم يكسب حقولا .. لم يدخل مصرفا ماليا في حياته .. كلّ دريهماته حرقها ثمنا لهذه الكتب .. لهذه الأوراق .. لتلك الأدوات المدرسيّة الّتي تملأ الأركان من أجلك ومن أجل اخوتك .. فكّري في أبيك الّذي تقدّمت به السنّ وعجز .. فكري في اخوتك الثّمانية .. فكّري في رفع اسمنا بين الأسماء ... كلّ أملنا أن لا تعرفوا الشّقاء الّذي عرفناه .. البداوة البدائيّة الّتي فتحنا أعيننا عليها .. وتمرّغنا في طينها ووحلها وشظفها وشقائها وقذارتها .. اسهرى يا بنتي .. اقرئي يا بنتي فموعد الامتحانات قريب والشّهائد ترفع بيوتا لا عماد لها ... فكّري .. فكّري . »

ففكّرت واجتهدت .. وسهرت .. وتعبت .. واحترقت .. وصبرت .. وخفت .. وفشلت .. وكرّرت .. وأخيرا فرمني السنّ القانوني .. فرّت منّي الشّهادة .. فرّ منّي الحماس .. تدهورت صحّتي .. وقالوا مسكينة .. وتهت في مفترق الطّرق .

* * *

غنّ يا عندليب .. أنا لا أسمعك جيّدا يا عندليب .. اختلطت الأصوات في دماغي .. اختلطت الرؤى في مقلتي المغمورتين دمعا .. أنا أرقص يا عندليب .. أصابني الصّرع يا عندليب .. شعري يا عندليب أنتف منه وأذروه للرّياح تقديرا لفنّك .. ووقاري يا عندليب أسفحه على أقدام الرّوعة .. روعة الحروف والأنغام والأداء الحسن .. والقلوب الطيّبة .. التّكامل يا عندليب آه أين هو .. وكيف يكون ؟ انظر يا عندليب أرأيت هؤلاء الكبار القابعين حولي.. الأهل والجيران الفاغرين أفواههم .. الممسكين على قلوبهم من الدّهشة والخوف .. فيم يفكّرون ؟ وممّ هم خائفون ؟ ولماذا لا يتحرّكون لتقييد يدي ورجلي ؟ لماذا لا يسرعون إلى الهاتف يخبرون الشّرطة أو مستشفى المجاذيب ليسرعوا بزجي في غمرة الّذين فقدوا عقولهم بعد أن مرّوا بظروف كظروفي أو أشدّ سوءا ؟.. إنّهم بلا شك يا عندليب راقت لهم الفرجة.. رقصة جميلة محرّكة للأعصاب .. موقظة للدّماء .. لعلّ كلّ واحد منهم يتمنّى أن يتخلّى عن عقله يوما ولو لحظة ليفعل فعلي .. إنّهم لا يتحرّكون .. إنهم خائفون أن أرمي أحدهم بكاس أو بكرسي أن أسيل دمه .. أن أعضّه من أنفه .. أن أمسكه من شعره وأسقطه أرضا .. أو أن أجرّده من ثيابه وأسفح وقاره.. آمره بأن يرقص عاريا أمام الملإ أجمعين .. إنّ كلّ هذه الأفكار تطوف برؤوسهم ..

لكنّهم يدّعون الفلسفة .. يدّعون فهما لعلم الأنفس .. يدّعون أن يوهموني بأنّهم ليسوا موجودين في الغرفة .. ولا هم مهتمين بما أفعل لكي لا يقطعوا عليّ حبل الجنون بما هو أعظم .. ولكي لا أرمي بنفسي فجأة من الشّرفة .. أو أن أفتح الباب وألقي بجسدي الجوعان إلى السيّارات تدهسه وينسفك دمي ليكتب على الطّريق ذهبت ضحيّة البطالة والطّموح الضّائع والشّرف المزيّف.

* * *

آه يا عندليب .. متى ينتهي الألم ونستوعب النّغم .. ونحقّق الأحلام .. آه يا عندليب لم أعد أسمع .. لم أعد أرى .. لم أعد أحس .. أنا أكفّ عن الرّقص .. عن التّهريج .. عن التّفكير .. أنا أسقط أرضا على وجهي .. يا .. يا .. يا عندليب .

ف. س.

كتب جديدة :

★ وأخيرا صدر ـ وفي دفعة واحدة ـ كتابا الاستاذ الشاذلي بو يحيى وهما : « **قراضة الذهب في نقد أشعار العرب** » لابن رشيق الذى عنى بتحقيقه والتقديم له ، والثاني عنوانه « **الحياة الأدبية بافريقية في العهد الصنهاجي** » كتبه الاستاذ بو يحيى باللغة الفرنسية وقدمه أطروحة لنيل الدكتوراه . وقد أهدانا مشكورا نسخة من كليهما .

حيرة بصير ضرير

شعر : حسين سفطة

« مهداة الى روح أبى العلاء المعرى »

كفيف ولكنه ينظر … وأعمى ولكنه يبصر
فعينه اليمنى مفقأة … وعينه اليسرى بها عور
له من ضياء بصيرته … ذكاء ـ اذا شئت ـ أو أبهر
تزعزع الكون بآرائه … وما عاقه الدر والجوهر
أصم على حادثات الليالى … وأبكم فى الحب لا يظهر
حرام عليه إذا ما شكا … وإن أن من قلبه أخطر
يعيش مدى الدهر فى محنة … محياه محلولك أصفر
ذبول يشيع على هيكل … ودنيا بآلامه تزخر
وقذف من الفكر يسمو به … ولكنه فى الأسى يبحر
يسير الهوينا بلا أمل … ويخشى من الناس أن يسخروا
لكم حث تلك الخطى مسرعا … يحاول أمرا فلا يظفر
تنازعه خافقات الهوى … فيرتاع لكنه يصبر
ويخفى لواعج أشجانه … ويكتم سرا فلا يجهر
صراع يعانيه فى وحشة … ولا أحد عنه يستفسر
فمن قائل : كان رهن الهوى … ومن قائل : حبه أكبر
عجيب على الرغم من سجنه … يحيره العالم الآخر
وأعجب من فيض أحزانه … فتاة لكالشمس بل أنضر
سليلة نبل زكت ريحها … تفتق من روحها عنبر
براءتها كالملاك عفافا … وداعتها ربما أطهر
تؤانس آفاق وحدته … فيثمل بالعطف لا يسكر
يحاول أن يحتسى أكؤسا … ولكن وضعه لا يغفر
تقدس روعة أسلوبه … كهولته عندها تسحر
تعاهده بيمين الوفاء … على الصدق والود لا تغدر
تبارك إخلاصه للهوى … وتثنى عليه وقد تشكر
ترى فى سماء الدنا عالما … بعيد المرام فلا ينظر
يضم شتات الألى أخلصوا … وحولهم الحور والكوثر

ح. س.

مطالعات

المعلم علي

رواية ، بقلم : عبد الكريم غلاب
تعليق : البشير بن سلامة

من القصص ما تقرؤها اليوم ثم لا تمضى أيام قليلة حتى تذهب أحداثها أدراج الرياح ولا تبقى فى الذاكرة الا أشباح باهتة من الأشخاص ونفايات من صيرورة العمل الفنى فيها ٠ ورواية « المعلم على » ، وقد مرت على أشهر منذ أن قرأتها ، ليست من هذا القبيل بل هى رغم ذلك ماثلة فى ذهنى حية بتفاصيلها وثابة الأحداث ، غنية الوصف غزيرة اللغة ٠

ان الأستاذ عبد الكريم غلاب المعروف بمقالاته ودراساته ومواقفه الفكرية قد أثبت بهذه الرواية ، بعد روايته « دفنا الماضى » والقصص العديدة المنشورة فى المجلات والجرائد،أنه جدير بأن يحتل فى الأدب العربى مكانة مرموقة الىجانب نجيب محفوظ وغيره من القصاصين العرب ٠ ذلك أن هذه الرواية المغربية لحما ودما تشدك اليها شدا وتجعلك تغوص فى أحداثها وتستمتع بوصفها وتتعاطف مع أشخاصها من دون ملل ولا شرود ذهن ٠ وهى الى ذلك تثير قضايا إنسانية خالدة تخص منزلة الفرد فى مجتمعه وعلاقته بأمته وشعوره الحاد بوطنيته ونزوعه الى التخلص من وضعه وتغييره التغيير التام ٠

هى قصة كل شاب فى العالم الثالث أو على الأقل فى المغرب العربى يفتح عينيه فى خضم عالم يتغير ويتبدل ثم يضطر الى أن يتحسس خطاه ويعى كيانه ويفهم ما حوله ومن حوله ليدخل غمار التاريخ اذ كان يعيش على هامشه ٠

و « المعلم على » هو من هذا الصنف ، وان كان معلما بالقوة ، اذ هو عامل بسيط فقير معدم يتنقل من عمل الى آخر من مطحن التدلاوى الى معمل الدباغة الى معمل الغزل وفى كل مرة يطرد ، وفى كل مرة يذوق من عذاب البطالة وعذاب النفس الكثير ٠ ولكنه فى كل ذلك يتعاظم وعيه بكيانه ويشعر بحقارة

نفسه بعد أن كان يطمع باليسير وهو مسرور بذلك . يقول : « ان اللـه لـم يحكم علينا بأن نظل عبيدا للآخرين أن أظل أنا عبدا للتدلاوى وأن تظل أنت عبدا لهذا الفندق الملعون وأن يظل قدور عبدا لمعلمه حتى أصبحنا نمثل بلـد العبيـد » .

بهذه الجملة وبغيرها يدخل على من اللاوعى ، الى الوعى بمنزلته ، وأكثر من ذلك يخرج من فرديته لينظر الى الـذين يشبهـونه فى وضعهـم الاجتمـاعى فيتعاطف معهم ويشعـر باللحمـة التى تجمعـه بهم فيكـون مستعـدا الى أن يشاطرهم آلامهم وأحزانهم وأن يمضى شوطا معهم فى تكتلهم .

وهكذا عندما ينتقل على الى معمل الصابون وبه يتحول من عالم الصناعات التقليدية الى عالم المصانع تبدأ فكرة النقابة تخالج ذهنه بايعاز من الحيانى . وعند ذلك نشاهد هذا الشاب الأمى الذى يخرج من القرون الوسطى وليس له من عدة الا شعوره الحاد بالحياة والحياة الكريمة ، يقتحم العالم العصرى بكل تغييراته ويحتك بالأجنبى .

وكأن على يدخل التاريخ من بابه الكبير ، اذ يتضح فيما بعد أن النقابة التى تكونت بالمعمل لم تكن الا بايعاز من الوطنيين من حزب الاستقـلال وهو الذى جر على الى السجن والى الدخول فى الحركة الوطنية والمساهمة فيها اسهامـا كبيـرا .

هذا هو ملخص الاحداث ولكن المهم هو أن على لم تكن فى شخصيته طرافة ولا فى أعماله ما يلفت النظر وانما هو واحد من تلك الآلاف المؤلفة التى فتحت أعينها فى المغرب العربى فى الخمسينيات وانتقلت فجأة من عالم تقليـدى الى عالم عصرى بفضل الحركات الوطنية . هذا هو المهم . وهو فى الواقع تصوير صادق لفترة حاسمة من تاريخنا استغلها الاستاذ عبد الكريم غلاب ليجعلها إطارا لروايته وليس أصدق ولا أرشق من هذا الاختيـار ذلـك أن القصص المغربية التى تعالج فى مثل هذه الدقة وبمثل هذه البراعة فترة الكفاح الوطنى هى قليلة وقليلة جدا . وهو ما يدعونا الى أن نسجل بكل اعتزاز هذا الاختيار وهذا النزوع الى التأصل وهو ليس بغـريب من مكافـح وطنـى كالاستـاذ عبد الكريم غلاب الذى تجاوز شعوره الوطنى المغرب الاقصى ليتجـاوب مـع أقطار المغرب العربى .

ولكن الرواية رغم هذا ليست لقطة تاريخية ولا سردا لأحداث بل هى من

الناحية التقنية فيها محاسن كثيرة وهى ليست بالقصة التاريخية كما نجدها عند جرجى زيدان أو كرم ملحم كرم بل هى من نوع القصة الاجتماعية التى تعتمد تحليل النفسيات وتقوم على السرد وتتوشح بركن من أركان القصة الكلاسيكية ألا وهو الوصف ٠

لهذا فان أهم ما نجح فيه الأستاذ عبد الكريم غلاب هو تحليله للنفسيات : نفسية على ومعلمه التدلاوى ، نفسية العملة فى معمل الدباغة أو معمل الصابون ، نفسية الأم الفقيرة الخ ٠٠٠ كل هذه التحاليل أضفت على القصة مسحة من الصدق وأبرزت قدرة قصاصنا على التعمق فى هذه النفوس الساذجة البسيطة وعلى السمو بها الى مستوى الفن حتى لا تظهر لوحة فلكلورية بحتة تحط من قيمة القصة كفن وهو ما ينحدر اليه كثير من الكتاب الذين يتخذون من الاطار الاجتماعى مادة لقصصهم ٠

غير أن الذى يسترعى الانتباه فى هذه التحاليل التى تتناول كل منازع النفس ٠ وتغوص فى المشاعر الانسانية كالخوف والشعور بالتفاهة والصداقة والتضامن والرأفة وغيرها ، هو أن عاطفة الحب بالمعنى المتداول غير موجودة ، فكأن على وهو الذى أثقل كاهله وجعله لا يفكر الا فى القوت فى أول الأمر ثم ينتقل فجأة الى الشعور بالتضامن مع اخوانه فى المعمل ليتعاطف مع أمته فى كفاحها ضد الأجنبى، كأنه لم تسع نفسه عاطفة كانت ربما تشغله عن هذا كله٠ ولكن رغم هذا فان السؤال يبقى قائما ليظفر بالجواب الشافى ؟

أما الركن الثانى الذى جعل من الرواية أثرا فنيا ذا بال هو ما قامت عليه من وصف بارع سواء كان للمدن والأحياء كوصف فاس أو العائلات الفقيرة وما تتخبط فيه من حرمان كعائلة على أو البنت التى تحمل سطل الماء ويذكرنا هذا بفكتور هيقو ٠ كما أتحفنا الاستاذ عبد الكريم غلاب بلوحة شيقة جدا ليوم مولاى ادريس بفاس وذبح الثور فى آخر الأمر ولا ننسى أيضا التدقيق فى نظام أصحاب الحرف بفاس وقضاياهم ٠ وان الذى يخرج به القارىء من ضروب الوصف هذه هو شعور بعظمة شعب المغرب الأقصى وزخارة الحياة عنده وغناها وهو ما يدعو الى الجزم بأن المجتمع المغربى يمكن أن يكون مادة غزيرة لكتاب الرواية يكرعون منها ما شاء لهم أن يكرعوا وبطبيعة الحال فان هذه الصفة الغالبة التى امتاز بها الاستاذ عبد الكريم غلاب فى توخيه الوصف لها جوانبها السلبية اذ تجر فى بعض الاحيان الى الاكثار من التدقيق مما يثقل فى حركة القصة ويتبادر الى الذهن أن الاستغناء عن صفحة أو جزء من فصل أمر لا يضر كثيرا بالرواية ٠

ولا ننسى الركن الذى به تنجح القصة وبه وحده مهما كانت تقنيتها وإحكام حركتها ورشاقة أدوارها ألا وهى لغتها بالمعنى الشامل للكلمة أى الرصيد اللغوى من جهة وهيكل الجملة بتراكيبها وايقاعها ونبراتها من جهة أخرى .

لقد امتازت لغة الاستاذ عبد الكريم غلاب بغنى رصيدها اللغوى وتنوعه ، فعلاوة على سيطرته على اللغة الفصحى وإحكامه لها وكرعه من سعتها اللفظية فانه أقحم فيها ألفاظا مغربية قولبها بصورة لا تضير بفصاحة اللغة بل ان الكلمات العامية المبثوثة فى الكتاب لا تظهر نابية دخيلة بل هى تنسجم مع النص وتندرج فى الجملة بصورة طبيعية فتضفى على القصة جوا من الأصالة الفنية ينبىء بقدرة فائقة لا على التصرف فى الفصحى فقط بل على اثرائها وتطوير رصيدها اللغوى ، وبطبيعة الحال فان كل هذا يعطى للجملة حيوية طريفة ويغير من ايقاعاتها ونبراتها فتأتى اللغة فى آخر الأمر حية متوثبة من دون حذلقة ولا تشدق .

على أن هذه المحاسن لا تغلب على أركان الرواية كلها بل تكاد تقتصر على الوصف ذلك أن لغة التحليل النفسى تبدو متعثرة فى بعض الأحيان كما أن لغة الحوار يعتريها شىء من التكلف فى مواطن عديدة .

وبعد هذا فان الرواية ناجحة ما فى ذلك من شك وهى تعد كسبا كبيرا للقصة المغربية نتمنى للاستاذ عبد الكريم غلاب اطراد الانتاج بها وننتظر منه المزيد .

كتب جديدة :

★ فى ميدان القصة أصدرت الدار التونسية للنشر هذه الأيام مجموعة من القصص القصيرة لمصطفى الفارسى بعنوان « **سرقت القمر** » ، وتستعد المكتبة الشرقية لابراز مجموعة قصصية خلال هذا الشهر بعنوان « **نداء المستقبل** » تأليف فاطمة سليم .

★ يهتم الاستاذ منصف شرف الدين بالمسرح كثيرا ، وقد مارس هذا الاهتمام على مستوى الهواية والدراسة والادارة الخ ... ثم تمحض لتاريخ المسرح التونسى فتحدث عنه فى النوادى وكتب عنه فى الصحافة ، وها هو ذا يحسن عملا بتضمين كل ذلك فى كتاب أنيق بعنوان « **تاريخ المسرح التونسى** » وقد أهدانا نسخة من الجزء الاول لهذا التأليف فله الشكر .

كتب جديدة

★ عززت المكتبة المدرسية بسفر جديد هو كتاب « **المتع في الأدب** » الذى ألفه الاستاذان أحمد خالد وأحمد الشابى ، وقد صدر منه الجزء الاول الخاص بالأدب التونسى والمغربى عامة هذه الأيام ، وسيليه قريبا الجزء الثانى الخاص بالأدب المشرقى .

وتطابق مادة هذا الكتاب برنامج السنة الخامسة من التعليم الثانوى والسنة الثالثة من دور المعلمين ، وهى الى جانب ذلك مصدر متعة للمطالع ، كما توفر للباحث مراجع وفيرة تساعد على مزيد من التوسع والاستفادة ، هذا مع تحلية بالخرائط وصور المعالم والنقائش والروائع التى قصد من ورائها الى ربط الأدب ببقية الفنون الجميلة والمستظرفة حتى يطلع الناشئة على خصائص كل عصر متظافرة ، فينشأ لديهم حب الاطلاع ، ثم الاعتزاز بالتراث ، وبالتالى الرغبة فى اثرائه وتطويره .

والمهم فى بروز هذا الكتاب الآن هو أنه بالاضافة الى ايفائه بحاجة التلاميذ يزيد فى التأكيد بأن الأدب التونسى ـ بقديمه وحديثه ـ قد نال هذه الأيام حظا غير قليل من العناية سواء فى ميدان النشر أو كمادة للتدريس .

ولعل هذه فرصة نغتنمها لدعوة ذوى العزائم ـ بله المترددين ـ الى اضافة شىء من زادهم الى هذه الحصيلة الطيبة ، ولن يستغنى الأدب التونسى ـ مهما قدم بين يديه ـ عن أى مجهود .

★ كنا أعلنا فى العدد الماضى عن صدور ديوان جديد للشاعر منور صمادح بعنوان « **نسر ونصر** » ، وقد وصلتنا نسخة منه هدية من المركز الثقافى الليبى بتونس ، فله شكرنا . وتمتاز هذه النسخة بغلاف اضافى يحمل وجهه صورة العقيد معمد القذافى رئيس مجلس قيادة الثورة الليبى ، وفى القفا قصيد حديث الحق بالديوان بمناسبة زيارة الرئيس الليبى لتونس .